فَقْدُ الوَلَدِ فِي قِصَّةِ يَعقُوب وأُمِّ مُوْسَى عَلَيْهِمَا السَّلَام

-الدِّلَالَاتُ وَالمَضَامِيْن-

دِرَاسَةٌ تَحْلِيْلِيَّةٌ

إِعْدَادُ

د.عبدُاللّه بن صَالحِ الخُضَيْري

الأسْتَاذُ المُشَارِكُ بكليَّة الدَّعْوَةِ وَأُصُوْلِ الدِّيْن

جَامِعَةِ أُمِّ القُرَى

من 379 إلى 450

بسم الله الرحمن الرحيم

فَقْدُ الولد في قصة يعقوب وأم موسى عليهما السلام

الدلالات والمضامين

دراسة تحليلية

دراسة في القواسم المشتركة والمضامين الإيمانية

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين القائل:{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ} يوسف:111، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد:

فإن القَصص في القرآن الكريم أداة تعليم وتوجيه وإرشاد، تبرز القِيم التي يدعو إليها ديننا الحنيف، وتَعِد المتمسكين بها بحسن الجزاء.

ومن بين القصص القرآنيّة العظيمة: قصة يوسف وقصة موسى عليهما السلام.

ـــــ فقصّة يوسف عليه السّلام: تشتمل على كثيرٍ من الدّروس والعبر في الصّبر واليقين والحكمة والأمل وبناء الحياة.. وهي تبين كثيرا من الأمور والقواعد التي تفيد في الحياة عموما.

ومن المشاهد الأساسية التي بينتها قصة يوسف: مشهد فَقْد يعقوب لولده يوسف، عليهما السلام، وقد أظهرت الآيات القرآنية يعقوب عليه السلام كنموذج للأب الصابرِ الصبرَ الجميل الإيجابي، الذي يرد أمره إلى الله، ولا ييأس من روح الله. كما وضحت القصة كيفية الفَقْد والرجوع، والرحلة الطويلة التي كانت بين ذلك، وغير ذلك من المتممات والمكملات، التي تحدثت عن إخوته وسلوكياتهم، وعن طبيعة البيئات التي تنقّل فيها يوسف، وما وقع له في مراحل حياته حتى التقى بأبيه يعقوب عليهما السلام –بعد طول غياب وفقْدٍ أشفق فيه على الهلاك– .

وقد عرضت هذه القصة نماذج ومشاهد كثيرة من طبائع البشر: نموذج الحقد والكراهية، ونموذج التسامح والمحبة، ونموذج العقوق والعصيان، ونموذج الصبر والمصابرة، ونموذج اتباع الهوى والشهوة، ونموذج استغلال النفوذ والسلطة.. إلى غير

ذلك من النماذج الإيجابية والسلبية. وفي كل ذلك دلالات عظيمة ينبغي الإفادة منها، كما قال تعالى: {لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ}يوسف:7. ونحن هنا سنركز على مشهدٍ واحد من مشاهد هذه القصة القرآنية، وهو: مشهد فَقْد يعقوب ليوسف عليهما السلام، مع الاستفادة مما يخدم ذلك من السياقات المصاحبة.

ـــــــ وقصة موسى عليه السلام، كذلك تشتمل على دروس وعبر كثيرة، ولذا فقد تكررت في مواضع عديدة من القرآن الكريم، ووثّقت لأمور كثيرة من حياة موسى الشخصية، ومن حياة بني إسرائيل قومِه.

وقد عرضتْ قصة موسى نماذج ومشاهد إنسانية عديدة: في التسلط والطغيان والاستعباد، وفي العبودية والخنوع، وفي الانعتاق من العبودية للعباد، وفي الانتصار للمظلوم، وفي المثابرة والعمل، وفي الوفاء بالوعد، وفي التسليم لأمر الله والثقة بقضائه، وفي التضحية في سبيل الله.. إلى غير ذلك..

ومن المشاهد التي عرضتها قصة موسى عليه السلام، مشهد فَقْد أُمه له، وهو في المهد، مضطرة لذلك الفَقْد، ومسلِّمة لأمر الله وواثقة به. وقد ظهرت بشخصية إيمانية فريدة، هي نموذج للمرأة المؤمنة الصابرة، الواثقة بالله، المصدِّقة بوعده، المنفِّذة لأمره، كما تبين أيضا من ذلك المشهد: الرعاية الربانية لأنبيائه وأحبابه، في كل مراحل حياتهم، وتجلت في ذلك قدرة الله تعالى العظيمة التي لا تقف أمامها أي قوة .

وقد أسلفتُ القول بأن الله سبحانه وتعالى يذكر القصص في كتابه العزيز لتكون عبرةً لأولي الألباب: تُستفاد منها الدّروس، وتتفتح بسببها المدارك والعقول. ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث.

والمتأمل في قصتي (فَقْد يعقوب وأم موسى – عليهما السلام– لولديهما)، يجد أن بنيهما قواسم مشتركة عديدة، كما يجد فيهما منطلقات وموارد غير مشتركة أيضا، وفيهما كثير من المضامين الإيمانية العظيمة، وكل ذلك يسترعي الانتباه والبحث. وبناء عليه فقد توجهت لأن أبحث في هاتين القصتين من جهة تلك الحيثيات، ورأيت أن

أجعل البحث بعنوان: (فَقْدُ الولد في قصة يعقوب وأم موسى عليهما السلام.. دراسة في القواسم المشتركة والمضامين الإيمانية).

أهداف البحث:

سعى هذا البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- بيان القواسم المشتركة بين قصتي يعقوب وأم موسى عليهما السلام في قضية فقد ولديهما ،وجوانب الاختلاف فيهما .
- توضيح مقاصد القرآن الكريم العامة من خلال القصتين
- استنباط المضامين الإيمانية والأخلاقية في القرآن الكريم من خلال القصتين .
- تجلية وجوه العناية والرعاية الربانية لأنبياء الله وعباده الصالحين.
- توضيح المقاصد والمضامين الإيمانية في القصتين.

الدراسات السابقة:

لم أجد من كتب في هذه القضية أو تناولها بالدراسة والبحث من حيث المنطلقات أو الأهداف أو النتائج التي توصلت إليها بعد ذلك .

منهج البحث:

اعتمدت المنهج الاستنباطي التحليلي، لتحليل متعلقات هذا الموضوع، وللكشف عن القواسم المشتركة بين القصتين وتجليتها، ولأخذ الدروس والعبر والمضامين الإيمانية منهما، بما يخدم أهداف البحث.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة وتمهيد ومبحثين، وخاتمة:

المقدمة فيها: أهمية البحث وأهدافه والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وتقسيماته.

التمهيد: وفيه:

ـــــ بيان مصطلحات البحث: (الفَقْد، والقواسم المشتركة، والمضامين).

ـــــ خلاصة موجزة لقصتي فَقْد يعقوب وأم موسى لولديهما.

المبحث الأول: القواسم المشتركة والاختلافات في القصتين.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: القواسم المشتركة بين القصتين.

المطلب الثاني: الاختلافات بين القصتين.

المبحث الثاني: المقاصد والمضامين الإيمانية في القصتين.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: المقاصد الإيمانية والأخلاقية المتعلقة بالقصتين.

المطلب الثاني: المضامين الإيمانية والأخلاقية في القصتين.

الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث وتوصياته.

تمهيد:

بينت فيه أمرين اثنين:

أ : معنى المصطلحات الواردة في عنوان البحث، وهي: (الفَقْد، والقواسم المشتركة، والمضامين).

ب : خلاصة موجزة لقصة فَقْد يعقوب وأم موسى لولديهما.

أ ـــــ بيان مصطلحات البحث: (الفَقْد، والمضامين)

أولا: معنى الفَقد:

الفَقْد من حيث اللغة: هو بفتح فسكون، أو بضم وسكون (الفُقْد)[1]، هو مِن الفعل:"فَقَدَ". وهو مصدر، يأتي للمعاني التالية:

1ـــــ ضياع الشيء[2].

2ـــــ عُدْم الشيء[3].

3ـــــ الأسف والحزن لغياب الشيء[4]. يقال: امرأة فاقِد، لمن مات زوجها، فهي ثَكلى وَالِهَة عليه.

([1]) انظر: معجم لغة الفقهاء، المؤلف: محمد رواس قلعجي – حامد صادق قنيبي، الناشر: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع/ الطبعة: الثانية، 1408 هـ – 1988 م. (ص: 348) وإصلاح المنطق، المؤلف: ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (المتوفى: 244هـ)، المحقق: محمد مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى 1423 هـ ، 2002 م. (ص: 72)

([2]) معجم لغة الفقهاء (ص: 348)

([3]) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، دار العلم والدار الشامية، دمشق ـ بيروت، 1412 هـ، ت : صفوان عدنان داودي (ص: 641) والقاموس الفقهي لغة واصطلاحا، المؤلف: الدكتور سعدي أبو حبيب، الناشر: دار الفكر. دمشق – سورية، الطبعة: الثانية 1408 هـ = 1988 م. (ص: 288)

([4]) تكملة المعاجم العربية، المؤلف: رينهارت بيتر آن دُوزِي (المتوفى: 1300هـ)، نقله إلى العربية وعلق عليه:، جـ 1 – 8: محمَّد سَليم النعَيمي، جـ 9، 10: جمال الخياط، الناشر: وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، الطبعة: الأولى، من 1979 – 2000 م (8/ 96)

وعلى هذه المعاني قوله تعالى: {مَاذَا تَفْقِدُونَ، قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ} يوسف: 71، 72. فالمعنى: ما الذي فقدتموه، يقال: فَقَدْت الشيء إذا عدمته بضياع أو نحوه، فكأنهم قالوا: ماذا ضاع عليكم[1].

4ـــ تطَلُّب الشيء والنظر في أحواله[2]، ومن هذا قوله سبحانه:{وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ} النَّمْل:20، فالتفقُّد: تطلُّب ما غاب عنك وتعرُّف أحواله[3].

والفَقْدُ في الاصطلاح لا يخرج عن المعاني اللغوية، فهو: عُدْم الشيء وغيابه بحيث ينقطع خبره ولا يعلم موضعه[4]. أو هو: غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه[5].

وقيل: هو أخصّ من العُدم، لأن العدم يقال فيه وفيما لم يوجد بعد، والفَقْدُ يقال في عُدم الشيء بعد أن كان موجودا[6].

وبالنظر في القرآن الكريم نجد أن هذه المعاني للفقْد، وردت في ثلاثة مواضع بثلاث صيغ، موضعان في سورة يوسف، وموضع في سورة النمل، وهي: (تَفْقِدون، وفي

([1]) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: 1250هـ).(3/ 50)

([2]) القاموس الفقهي (ص: 288)

([3]) التفسير الواضح، المؤلف: الحجازي، محمد محمود، الناشر: دار الجيل الجديد – بيروت، الطبعة: العاشرة – 1413 هـ (2/ 790)

([4]) المفردات في غريب القرآن (ص: 641) وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: 1270هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ. (7/ 24) والقاموس الفقهي (ص: 288)

([5]) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: 685هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – 1418 هـ.(3/ 171)

([6]) المفردات في غريب القرآن (ص: 641)

قراءة: تُفقِدون[1]، ونَفْقِد، وتَفَقَّد). فمِن: (تَفْقِدون، ونفقد) يأتي المصدر: فَقْدًا. ومن: (تَفَقَّدَ) يأتي المصدر: تَفَقُّدًا[2].

وقد عرفنا الفَقْد، كما سبق، وأما التفقد فقد قيل فيه: أنه هو والفقد بمعنى واحد[3]. وقيل: إن التفقد يغاير الفقد في معناه، فحقيقة التّفقّد تعني: تعرّف فُقْدَانِ الشيء[4]، فهو يطلق على التعرف هل الشيء مفقود أم لا؟. أو يطلق على معرفة أحوال الشيء

([1]) ومؤدَّى القراءتان واحد، فقرأ العامَّةُ «تَفْقِدون» بفتح حرف المضارعة؛ لأنَّ المستعملَ منه «فَقَد» ثلاثياً. وقرأ السُّلَمي بضمِّه، مِنْ أَفْقَدْتُه إذا وجدتَه مفقوداً، كَأَحْمَدْته وأَبْخَلْتُه، أي: وَجَدْتُه محموداً بخيلاً. وضَعَّف أبو حاتم هذه القراءةَ، ووَجْهُها ما ذَكَرْتُه. انظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، المؤلف: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق.(6/ 526). والقراءة الثانية تعطي معنى الضياع كما هو في القراءة المتواترة، فمعناها: ما الذي وجدتموه مفقودا عندكم. أو ما الذي وجدتموه بعد أن كان ضائعا، أو ضالا عنكم أو بعد أن ضل عليكم. أو يكون المعنى: ما الذي وجدتموه عندنا وفُقِد لديكم، ويكون معنى ذلك: أفقدتمونا إياه، فجعلتمونا سببا لفقده، والمعنى في النهاية واحد، وهو الضياع والعدم. انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تفسير أبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت. (4/ 295) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: 885هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة. الطبعة: الأولى، (1393 هـ = 1973 م) – (1414 هـ = 1993 م). (10/ 170).

([2]) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، المؤلف: د أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: 1424هـ) بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، 1429 هـ – 2008 م. (3/ 1728، 1729)

([3]) انظر: مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون. د. ت. (4/ 443) والنهاية في غريب الحديث والأثر، المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: 606هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، 1399هـ – 1979م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي. (3/ 462)والمعجم الوسيط، قام بإخراجه: إبراهيم مصطفى، وآخرون، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، استانبول، تركيا. (2/ 697) والقاموس الفقهي (ص: 288)..

([4]) المفردات في غريب القرآن (ص: 641)

عموما، وفي قوله: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ} قالوا: يعني: تعرّفُ موجودهِ من مفقودهِ[1]. وخصه بعضهم بانه يطلق على تطلب الشيء عند غيبته[2].

ومن هذا يمكن القول أن بين الفقد والتفقد تداخل في المعنى من جهة البحث عما غاب من أحوال الشيء المفقود، ومن جهة أن كلا منهما يمكن أن ينبني على الآخر، فمَن فَقَدَ شيئا تَفقَّدَ أحواله، ومَن تفقد أحوال شيء غاب عنه، يقال أنه فَقَدَه. ولكن ربما يكون معنى التفقد أقرب إلى الجانب العملي المحسوس، ومعنى الفَقْد أقرب إلى الجانب النفسي، وهذا ما أشار إليه ابن فارس في مقاييس اللغة[3].

وعليه يمكن القول أن المقصود بفقد الولد: هو عُدمه وغيابه، بعد وجوده، بحيث ينقطع خبره، ولا يعلم مكانه، مع الشعور بالأَسَى والحزن اللذان يدفعان إلى تَطَلُّب الولد المفقود والبحث عنه.

ثانيا: معنى المضامين:

المضامين جمع أصله (ضَمَنَ)، والضَّادُ وَالمِيمُ وَالنُّونُ أَصْلٌ صَحِيحٌ، وَهُوَ جَعلُ الشَّيءِ فِي شَيءٍ يَحوِيهِ. ومِن ذَلِكَ قَوْلُهُم: ضَمَّنْتُ الشَّيءَ، إِذَا جَعَلهُ فِي وِعَائِهِ[4]، والمَضْمُون: المحتوى، وَمِنه مَضْمُون الكتاب: مَا فِي طَيِّهِ، ومَضمون الكَلَام فحواه وَمَا يفهم مِنهُ، والجمع مَضامِين[5].

([1]) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المؤلف: مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الناشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية. (7/ 1669)

([2]) تهذيب اللغة، المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: 370هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 2001م.(9/ 53) والقاموس الفقهي (ص: 288)

([3]) مقاييس اللغة (4/ 443).

([4]) مقاييس اللغة (3/ 372)

([5]) المعجم الوسيط (1/ 545)

وعليه فالمقصود بالمضامين الإيمانية: هي المحتويات التي تتكلم عن المفاهيم والدلالات التي تتعلق بالإيمان ومقتضياته.

ب: خلاصة موجزة لقصة فَقْد يعقوب وأم موسى لولديهما

أولا: خلاصة قصة فقد يعقوب لولده يوسف عليهما السلام.

لم ترد قصة فقد يعقوب ليوسف إلا في سورة يوسف فقط، وخلاصتها من السورة كما يلي:

كان يعقوب عليه السلام له من الولد اثنا عشر ولدا ذكرا، كان منهم: يوسف وبنيامين من أُم، وبقية الأولاد من أمهات أُخريات[1]. وكان يعقوب شديد الحب ليوسف عليه السلام، وكان إخوته يرون منه من الميل إليه ما لا يرونه مع أنفسهم. وقد علل بعض العلماء ذلك الحب ليوسف أنه بسبب ما يرى فيه من المناقب الحميدة، فلما رأى الرؤيا تضاعفت له المحبة. وقال بعضهم: إن زيادة حب يعقوب ليوسف وأخيه، هو صغرهما، وموت أمهما، فهي فطرة وعاطفة[2].

وقد كان يعقوب يلحظ ما في نفوس أولاده بنظره العميق فيرى في الإخوة الكبار من النظرات إلى الصغيرين ما لا يطمئن به، فيعمل على ألَّا يكون منهما ما يثير ويؤجّج عداوتهم، ولذلك فعندما رأى يوسف رؤياه الصادقة: {إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}، نهاه أبوه عن قصِّ تلك الرؤيا على إخوته:{لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا}. وخوفُ يعقوب من كيدهم إما أن

([1]) تفسير البغوي – معالم التنزيل في تفسير القرآن، المؤلف : محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، المحقق : عبد الرزاق المهدي، الناشر : دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة : الأولى ، 1420 هـ . (2/ 477)

([2]) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المؤلف: محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى. (7/ 323) والموسوعة القرآنية، خصائص السور، المؤلف: جعفر شرف الدين، المحقق: عبد العزيز بن عثمان التويجري، الناشر: دار التقريب بين، المذاهب الإسلامية – بيروت، الطبعة: الأولى – 1420 هـ. (4/ 120)

يكون مبنيا على حكم العادة من العداوة الشائعة بين بعض الإخوة وبعض الأقرباء إذا كانوا غير أشقاء، وإما أن يكون مبنيا على شعوره بغيرة إخوته منه وكرههم له، نظرا لشغف أبيه به دونهم[1]. ويجوز أن يكون احترازه من جهة دلالة الرؤيا على شرفه وكرامته، وزيادة قدره على إخوته، فخاف من حسدهم عليه عند شعورهم بذلك[2].

ومع حرص يعقوب على بقاء السلام بين أبنائه، إلا أن الحسد والحقد كان قد تمكن من نفوس أخوة يوسف، فتآمروا عليه: {قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ}، فكيف يفضلهما في المحبة علينا، وهما صغيران لا كفاية فيهما، ونحن عشرة رجال كُفاة نقوم بمرافقه، فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا عليهما بالكثرة والمنفعة[3]. وقد حملهم الجهل على أن يقولوا عن أبيهم:{إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}، فيتهمونه بأنه قد ضل طريق العدل والمساواة، ضلالا بيّنا لا يخفى، فكيف يفضّل غلامين ضعيفين، على العُصبة أولى القوة والكسب والحماية عن الذمار[4]، فكأن حبه

([1]) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، المؤلف: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: 1394هـ)، الناشر: دار الفكر العربي. د. ت. (ص: 379) والتيسير في أحاديث التفسير، المؤلف: محمد المكي الناصري (المتوفى: 1414هـ)، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1405 هـ - 1985 م. (3/ 167)

([2]) محاسن التأويل، المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: 1332هـ)، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت، الطبعة: الأولى - 1418 هـ. (6/ 147) وقد قيل أنهم علموا بالرؤيا، فزاد حسدهم وغيظهم من يوسف. انظر: فتح القدير للشوكاني (3/ 17)، والأظهر أن يوسف لم يخبرهم بالرؤيا، كما هو ظاهر القرآن الكريم. والله أعلم.

([3]) (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) تفسير النسفي، المؤلف: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: 710هـ)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م. (2/ 97)

([4]) تفسير المراغي، المؤلف: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: 1371هـ)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، 1365 هـ - 1946 م. (12/ 118)

ليوسف وأخيه مع هذه الحال، هو الضلال بعينه، ويؤكد هذا قولهم له فيما بعد: {تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ}، قال قتادة: أي من حب يوسف، لا تنساه ولا تسلاه[1].

ويصل الحسد الآدمي إلى غايته، فيأتمرون على قتل أخيهم، أو إلقائه في أرض بعيدة مجهولة لا يصل إليه أحد، ولا يقدر فيه على الرجوع: {اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ}، فلم يكن إجماع على قتله، بل: {قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ}، فارتضوا بإلقائه في الجب.

ولما كانوا يعلمون أن أباهم يتمسك بيوسف ولا يسهل أخذه منه، جاءوا إليه بحيلة استجاشوا من خلالها عاطفته، فقالوا مستنكرين:{يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ}، سؤال فيه عتب وفيه استنكار خفي، وفيه استجاشة لنفي مدلوله من أبيهم، والتسليم لهم بعكسه، وهو تسليمهم يوسف. فيعقوب لم يظهر أنه يستبقي يوسف معه ولا يرسله معهم لأنه لا يأمنهم عليه، إنما قال أنه يفعل ذلك لحبه له، ولخشيته عليه ألا يحتمل الجهد الذي يحتملونه وهم كبار، ولخوفه عليه من الذئاب، لأنه صغير لا يقدر على دفعها إن هجمت عليه، فمبادرتهم له بأنه لا يأتمنهم على أخيهم وهو أبوهم، مقصود بها استجاشته لنفي هذا الخاطر، ومن ثم يفقد إصراره على احتجاز يوسف. فهي مبادرة ماكرة منهم خبيثة[2]. وفي ندائهم له بلفظ «يا أبانا» استمالة لقلبه، وتحريك لعطفه، حتى يعدل عن تصميمه على عدم خروج يوسف معهم. والاستفهام في قولهم «مالك لا تأمنا..» للتعجيب من عدم ائتمانهم عليه مع أنهم إخوته، وهو يوحي بأنهم بذلوا محاولات قبل ذلك في اصطحابه معهم ولكنها جميعا باءت بالفشل[3].

([1]) انظر: التيسير في أحاديث التفسير (3/ 204)

([2]) في ظلال القرآن، المؤلف: سيد قطب إبراهيم، الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة، الطبعة: السابعة عشر – 1412 هـ . (4/ 1974)

([3]) التفسير الوسيط لطنطاوي (7/ 326)

ولكن الأب الذي كان بإلهام الأبوة يتوجَّس خيفة على ولده ويخشى عليه السوء، يحاول معهم محاولة أخيرة بأن يخبرهم أنه يحزن إذا غاب عنه، وأنه يخشى انشغالهم عنه بشؤونهم، فيقول: {إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ}، ولكنهم لم يتركوا له بابا للاعتذار، {قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَّخَاسِرُونَ}، قالوا لأبيهم ليطمئنوه على يوسف إن خرج معهم: والله لئن أكله الذئب وهو معنا في هذه الرحلة ونحن جماعة محيطون به يشد بعضنا بعضا، لئن أكله الذئب ونحن كذلك إنا حينئذ لخاسرون سمعتنا وكرامتنا بين قومنا، ونحن لا نقبل على أنفسنا هذا الهوان[1]. فأخذوه ونفذوا ما أرادوه وألقوه في غيابة الجب، ثم عادوا إلى أبيهم عشاءً يبكون، قالوا: {إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ}، وأحسوا في أنفسهم بعدم تصديق أبيهم لهم، فقالوا: {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ، وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ}، ولكن الأب بفراسته وبإلهام الأبوة ما صدقهم، بل قال لهم: {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}[2].

واستمر الفقد يعمل في نفس يعقوب عليه السلام، ولم ييأس من روح الله ورحمته، فكان دائم الذكر ليوسف والفكر في أمره، حتى أصاب الله البلاد بقحط وجدب، فذهب إخوة يوسف إلى مصر يبحثون عن طعام وميرة، وهناك التقوا بيوسف فعرفهم ولم يعرفوه، فأعطاهم الميرة على شرط أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم إذا أرادوا الميرة مرة أخرى، وكانوا قد أخبروه بأخبارهم وأعدادهم، وقيل طلبوا منه حملا زائدا لبنيامين، فأعطاهم وطلب منهم إحضاره عندما يأتون في المرة المقبلة، فطلب يوسف لأخ لهم من أبيهم كان لهذا السبب[3]. ثم أعاد لهم بضاعتهم من غير علمهم..، فلما جاءوه المرة

([1]) التفسير الوسيط – مجمع البحوث (4/ 290)

([2]) انظر: المعجزة الكبرى القرآن (ص: 380)

([3]) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تفسير أبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت.(4/ 288)

الثانية جاء معهم أخوهم بنيامين، فتحيل لإبقائه عنده، فزاد حزن يعقوب، فبعد أن كان فاقدا ليوسف صار فاقدا اثنين هما أحب أولاده إليه، فنكأ ذلك جرحه القديم على يوسف، ولازمه الحزن من جديد، وعاود تذكره بصورة دائمة، حتى أنكر عليه بنوه ذلك وقالوا: {تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ} يوسف:85، فأرجع أمره إلى الله بالشكوى وبث ما في نفسه، ثم أمر أبناءه بالبحث عن يوسف وأخيه من غير يأس ولا قنوط، عسى أن يجداهما، وقد كان ذلك إحساس الأب المكلوم، وكان ذلك بداية نهاية فقد يعقوب لولده يوسف عليهما السلام،{يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} يوسف:87، وقد كان هذا أمر من يعقوب بالبحث الشديد والتقصي عنهما، فكان رجاؤه وإيمانه بأنه سيجدهما حاضران بقوة، بحيث لا تكاد تجد لليأس عنده أثرا، فلما وصلوا إلى مصر ومعهم بضاعة غير ذات قيمة "مُزجاة "، ورأى يوسف منهم ذلك الخضوع وشدة الحاجة، رقّ لهم، فبدأ بإخبارهم الخبر، فقال: {هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ..}، أما يوسف فظاهرٌ فعلهم فيه، وأما أخوه، فلعله والله أعلم قولهم: {إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ}، أو أن الحادث الذي فرَّق بينه وبين أبيه، هم السبب فيه، والأصل الموجب له، وهو كيدهم ليوسف، {إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ} وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم، أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم[1]. و(قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ) الاستفهام هنا تقريري تذكيري، وفيه إشارة إلى شخصه وقد أنكروه ابتداء لانقطاع الخبر، ومرور الزمن، وصعوبة التفريق ما بين رجل مكتمل وحدث صغير، وقد صار رجلا سويا، كان ذلك توجيها لأن يرجعوا بالبصر كرتين، فرجعوه، فتبين لهم أنه يوسف، فقالوا مؤكدين ومتأكدين، (أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ) وأكدوا أنه يوسف بـــ (إنَّ) المؤكدة، وبـــ (اللام)، وبـــ (أنت)، فقال لهم:

([1]) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: 1376هـــ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. (ص: 404)

{أَنَا يُوسُف وَهَذَا أَخِي} {قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا) قد تفضل اللَّه علينا بمنه وأكرمنا: {فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} وكان هذا أولاً لوصف عملهم بالإحسان، ولأن الإحسان هو السبب في مَنِّ الله تعالى وعطائه، وللتعريض بما فعل الإخوة معه، وأنه لم يكن من الإحسان في شيء. ويظهرون الندم فيعفو عنهم ولا يثرب عليهم، بل يسامحهم ويستغفر لهم، ويكفيهم أن يروا قدرة الله في إعزازه وأخيه وفي خذلانهم، ثم يستعجل في طلب أبيه وسائر أسرته ليأتوا إلى مصر لينعموا معه، فأعطاهم قميصه ليكون تقدمة إلى أبيه يستروح به إلى أن يصل إلى يوسف وأخيه، ورجاء أن يعود إليه بصره الذي فقده بسبب فقد يوسف، {اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا}، وهذا دليل أن بصره قد ذهب من شدة الكمد والحسرة والأسف، وكثرة البكاء. وارتداد البصر من خوارق العادات.

ودعا يوسف الصديق إلى جمع الشمل بالمودة الواصلة، بعد أن فرقه إخوته بالحسد الغامر، وقال: {وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ} من تربطكم بهم قرابة دانية، وقرابة قاصية. وكان هذا الطلب من يوسف ليكون أهله معه في عزة الحكم، وإن الكريم عندما يجتمع أهله بعزته ينال متعتين: أولاهما: متعة العزة الحلال العادلة لنفسه، وثانيهما: متعة مشاركة أهله له في العزة والسلطان؛ وتلك هي الفطرة.

{وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ، قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ، فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ، قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ، قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ، وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}. تنتهي هنا مأساة فقد يعقوب ليوسف عليه السلام، ويسدل الستار على مشهد حي شديد الحيوية من الوصال والحميمية بين

الأب وابنه المفقود، فتسكن اللوعة ويهدأ الشوق[1]. وهكذا رجع يوسف عليه السلام إلى أبيه بعد فترة طويلة من الزمان، وهو ملك عظيم ونبي كريم.

ثانيا: خلاصة قصة فقد أم موسى لولدها موسى عليهما السلام.

جاء ذكر قصة فقد موسى عليه السلام في موضعين من القرآن الكريم ،ففي سورة طه الآيات (37ـــ 40)، يقول تعالى:{وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى، إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى، أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي، إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَن..}.

وفي سورة القصص الآيات (7ـــ 13)، يقول تعالى:{وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ، وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ، فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}.

ومن خلال هذه الآيات يمكن تلخيص قصة فقد موسى كما يلي:

وُلِدَ موسى عليه السلام فحفظته أمه عندها زمنا، ثم خافت عليه من فرعون وبطشه؛ فقد كان يعادي بني إسرائيل، فيذبح أبناءهم ويستحي نساءهم؛ لكيلا تكون منهم قوة تناوئ حكمه، وترد طغيانه[1].

([1]) انظر: زهرة التفاسير، المؤلف: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: 1394هـ)، دار النشر: دار الفكر العربي.(7/355 ـ 3860) باختصار..

وقيل إن فرعون خاف أَن يذهب ملكه على يد مولود من بني إسرائيل، يولد في ذلك العام الذي ولد فيه موسى، بحسب رؤيا منامية، أو غير ذلك، فأمر بقتل كل ذكر يولد من بني إسرائيل في ذلك العام، فولد موسى في ذلك العام،{وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا}، ولم يَقْدِر فرعون بتدبيره على دفع ما قدره الله عليه، إذ لا يُغنى حَذرٌ مِنْ قَدرٍ[2].

وبعد أن ولدت أم موسى، اشتد خوفها وقلقها على وليدها، فألهمها الله أن تصنع له تابوتا وتلقيه في اليَم، أي في نيلُ مِصْرَ[3]، ففعلت ذلك، وألقت به في اليم، وقد كان ذلك اضطرارا من الفطرة الملهمة بإيحاء من ربها سبحانه لها، فخيرٌ لها أن يُلقى لقدر الله تعالى وقضائه، من أن يذبح بين يديها، ففرص نجاته حال إلقائه في اليم محتمَلة، بخلاف أن يؤخذ ليقتل ويذبح أمامها. جاءها ذلك الإلهام مع إثلاج قلبها بألَّا تخاف وألَّا تحزن، ومَنَّ الله تعالى عليها بالاطمئنان بأنه سيعود إليها. وهكذا يكون الاطمئنان في موطن الخوف، والقرار في موطن الاضطراب، والسكون في موطن الهلع، منّة إلهية وعلامة ربانية[4].

ولا تكاد تنتهي من إلقائه في اليم حتى عاودها إحساس الأُم الفاقد لولدها الرضيع، الذي لا يزال حديث الولادة، فتكاد تبدي أمرها وتظهر سرَّها، ولكنَّ الله تعالى يربط على قلبها بالصبر فتصبر وتحتسب[5]. والتعبير القرآني يصور لنا فؤاد الأم المسكينة صورة حية: «فارِغاً» لا عقل فيه ولا وعي ولا قدرة على نظر أو تصريف {إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ} وتذيع أمرها في الناس، وتهتف كالمجنونة: أنا أضعته. أنا أضعت طفلي. أنا ألقيت به في اليم اتباعا لهاتف غريب! {لَوْلا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها} وشددنا عليه

([1]) انظر: التفسير الواضح (2/ 818)

([2]) التفسير الوسيط – مجمع البحوث (6/ 1021)

([3]) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (5/ 437)

([4]) انظر: المعجزة الكبرى القرآن (ص: 149)

([5]) انظر: المعجزة الكبرى القرآن (ص: 150)

وثبتناها، وأمسكنا بها من الهيام والشرود. {لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}المؤمنين بوعد الله، الصابرين على ابتلائه، السائرين على هداه[1].

وفي قوله تعالى: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً} إشارة إلى ما ترك ضياع الولد من يدها، من فراغ كبير، في مشاعرها، وأحاسيسها.. فلقد تعطلت بذهابه عنها كل العواطف التي تغذي بها الأم طفلها[2].

وقد اختلف العلماء في تفسير فراغ قلب أم موسى إلى أقوال: فمنهم من فسره بخلوه من كل شيء إلاَّ من أمر موسى. ومنهم من فسَّره بالخلو من الصبر. ومنهم من فسره بنسيانها وعد الله برده إليها. ومنهم من قال: فارغا من الهم حيث عرفت أنه لم يغرق، وأن فرعون عطف عليه وتبناه، كما يقال: فلان فارغ البال. وقال أخرون: فارغا من العقل؛ لِما دَهمها من الخوف والحيرة، حين سمعت بوقوعه في يد عدوه فرعون، كما في قوله تعالى: {وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} أي: لا عقول فيها[3]. والسياق الظاهر يدل على أن قلب أم موسى تعلق بابنها بحيث لم يعد لها تفكير في غيره، ومن شدة وجدها عليه كادت أن تبوح بأمره، وهذا لا ينافي الربط الذي قال الله أنه ربط به على قلبها، فقد وقع الربط بعد أن كادت تظهر الأمر. وهذا تؤكده طبيعة فطرة الأم الملتاعة على طفها الرضيع، وهو شيء واقعي لا يمكن نفيه. كما يؤكده التصرف الذي رواه عنها القرآن، فهو يعبر عما في نفس الأم من ألم فراق وليدها واشتياقها له، ولذلك فقد أمرت أخته بالتقصي في البحث عنه وعن مصيره وأحواله.

وأيضا ذلك القلق الفطري لا ينافي معرفتها لأحواله مسبقا، كما جاء في قوله تعالى: {أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ}، وقوله: {إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}، وذلك لأن هذه المعرفة لم تكن

([1]) في ظلال القرآن (5/ 2680)

([2]) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة، د ت.(10/ 315)

([3]) التفسير الوسيط – مجمع البحوث (7/ 1743)

وحيا صريحا، كما هو مع الأنبياء؛ فالوحي علم قاطع لا ينبغي معه غير التسليم والانتظار لقضاء الله. وسماه القرآن وحيا، توسُّعا، وهو وحي إلهام بلا خلاف[1]، أورثها يقينا راسخا بما أمرت به وتصرفت في ضوئه[2]، وهو لم يأمرها بعدم البحث عن موسى، ولم يكلفها شططا من مخالفة الفطرة الإنسانية، التي تدفع بالإنسان دفعا إلى التقصي وراء طفله الفقيد مهما كلفه ذلك.

ولَم تمتنع أم موسى عن البحث والمحاولة، فكلَّفت أخته بالتقصي عنه،{وَقالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ} أي: اتبعي أثره، واعرفي خبره، إن كان حيا، أو أكلته دواب البحر أو وحوش البر.. أو أين مقره ومرساه؟.

وكانت أخته أكبر منه، في سنٍّ تمكنها من معرفة كيف تتصرف في حالتها تلك. ولم تذهب أمه للبحث عنه؛ لأنها لا تزال في أحوال الوضع والولادة التي لا تسمح لها بمثل ذلك الفعل، وربما أيضا أن حركتها ستلفت النظر أكثر مما هو ممكن مع أخته التي جعلت الأمر وكأنه لم يكن متعمدا منها، {عَنْ جُنُبٍ وهم لا يشعرون}. لا يشعرون أنها تقصه، وتتعرف حاله، وأنها أخته، وذلك من حذقها في كيفية مراقبته، وبما دبر الله له من التدبير الحكيم[3].

وذهبت أخته تقص أثره في حذر وخفية، وتتلمس خبره في الطرق والأسواق، فإذا بها تعرف أين ساقته القدرة التي ترعاه، وتبصر به عن بُعد في أيدي خدم فرعون، يبحثون له عن ثدي للرضاع، {وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ} .. إن القدرة التي ترعاه تدبر أمره، تجعلهم

([1]) انظر: تفسير ابن كثير ــ تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، المحقق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى – 1419 هـ .(3/ 201) وغيره.

([2]) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور التونسي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط1، 1420هـ/2000م.(20/ 73)

([3]) التحرير والتنوير (20/ 83)

يلتقطونه، وتجعلهم يحبونه، وتجعلهم يبحثون له عن مرضع ترضعه، وتحرم عليه المراضع، لتدعهم يحتارون به وهو يرفض الثُّدِي كلما عرضت عليه، وهم يخشون عليه الموت أو الذبول، حتى تبصر به أخته من بعيد، فتعرفه وتتيح لها القدرة فرصة لهفتهم على مرضع، فتقول لهم: {هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون} ؟ فيتلقفون كلماتها، وهم يستبشرون، يودون لو تصدق فينجو الطفل العزيز المحبوب. ويستجيب خدم فرعون، ويستجيب القصر لمقترح أخت موسى في عرضه على المرضع التي ذكرتها لهم، تحت ضغط الحال التي هم فيها، فالطفل لا يقبل ثدي مرضعٍ، وتحت ضغط حبهم له، كما بينه الله تعالى بقوله: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي} طه:39، ثم إنهم في عجلة من أمرهم حتى لا يتأثر الطفل وتتضرر صحته، ولكنهم تساءلوا: كيف عرفتِ أنهم سيقومون بكفالته والنصح له؟ فقالت: هم يفعلون ذلك رغبة منهم في سرور الملك ورجاء عطائه[1]. فكان في ذلك ترغيبا لهم، ثم تساءلوا عن كون أمها مرضعا، ومن أين لها حليب في ثديها، فأجابتهم بما أقنعهم، وجعلهم يطمئنون لكلامها، ويسلمون الطفل لأمه[2].

وينتهي المشهد بعودة الطفل الغائب لأمه الملهوفة، مُعافَى في بدنه، مرموقا في مكانته، يحميه فرعون، وترعاه امرأته، وتضطرب المخاوف من حوله وهو آمن قرير. وقد

([1]) تفسير المراغي (20/ 40)

([2]) ورد أنها قالت لهم إن لأمي ولدا يسمى هارون ولد في العام السابق لولادة موسى عليهما السلام، وكان فرعون لم يقتل الأطفال من بني إسرائيل في عام ولادة هارون. انظر: تفسير البغوي (3/ 525) وفتح القدير للشوكاني (3/ 431).. وفي هذا جواب لتساؤلهم: كيف لأم موسى أن يكون في ثديها حليب؟. يجعلها تعرض رضاعتها لموسى من غير أن يشكُّوا في أمرها، وقيل: إن اخت موسى أجابت عليهم أن المرأة فيها حليب فهي امرأة قتل ولدها، وأحب شيء إليها أن تجد ولداً ترضعه. انظر: فتحُ البيان في مقاصد القرآن، المؤلف: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (المتوفى: 1307هـ)، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، الناشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت، عام النشر: 1412 هـ – 1992 م.(10/ 95).

صاغت يد القدرة الحلقة الأولى من تدبيرها العجيب: {فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ}.

وينتهي سياق القصة بعد هذا عن السنوات الطوال ما بين مولد موسى– عليه السّلام– والحلقة التالية التي تمثل شبابه واكتماله. فلا نعلم ماذا كان بعد رده إلى أمه لترضعه، ولا كيف كانت صلته بأمه بعد فترة الرضاعة تلك[1]. ونحن هنا إنما يعنينا هو فقد موسى ورجوعه إلى أمه، وقد ذكرنا ذلك باختصار.

([1]) انظر: في ظلال القرآن (5/ 2680، 2681) باختصار..

المبحث الأول: القواسم المشتركة والاختلافات بين القصتين

وفيه مطلبان

المطلب الأول: القواسم المشتركة بين القصتين

المطلب الثاني: الاختلافات بين القصتين

المطلب الأول: القواسم المشتركة بين القصتين

سَلَف القول في ماهية القواسم المشتركة، وأنها تعني النقاط والجوانب التي تتقاطع فيها القصتان وتشتركان فيها. وبالنظر في سياق القصتين أجد أن بينهما قواسم مشتركة كثيرة، أجملها فيما يلي:

1ـــ التعبير عن أحاسيس ومشاعر الفقد عند يعقوب وعند أم موسى، وتكاد القصتان تصفان النفوس والأحاسيس بطريقة متقاربة.

فعن يعقوب يحكي القرآن فيقول: {قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ}، فهو هنا يحس بأنه سيفقده، وذلك استشعار منه ولم يكن قد وقع[1]، ويصف شعوره إذا حدث ذلك بقوله "إِنِّي لَيَحْزُنُنِي"، فأخبرهم أنه يحزن لغيبة يوسف عنه لفرط محبته له وخوفه عليه[2]. ولكنه مع ذلك يسمح لهم بأخذه، من غير أن يأتوه بضمانة كافية، غير الوعد المجرد بإعادته إليه، ويكل أمره إلى الله.

وأم موسى تلده فتخاف عليه من فرعون، وتحتفظ به عندها زمنا[3]، وتحزن مما تتوقع أن يقع عليه مستقبلا. وهي لما نهيت عن الخوف والحزن بقوله: (ولا تخافي ولا تحزني) إنما نهيت عن أسباب الخوف والحزن المتوقعة، التي كانت لا زالت في تفكيرها[4]، ولكن يأتيها إلهام قوي يأمرها بإلقائه في اليم فتلقيه في اليم، وتتركه بين يدي القدرة الإلهية.

([1]) انظر: حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (المتوفى: 1069هـ)، دار النشر: دار صادر – بيروت.(2/ 141)

([2]) فتح القدير للشوكاني (3/ 12)

([3]) اختلف المفسرون في الزمن الذي احتفظت به أمه قبل إلقائه في اليم، فقيل: ثمانية أشهر وقيل أربعة أشهر وقيل ثلاثة أشهر..، انظر: اللباب في علوم الكتاب (15/ 216)، ولكن الظاهر أن ذلك كان زمنا يسيرا وليس مدة طويلة، وقد أمرت بإرضاعه وإخفائه مدة لإرضاعه، حتى إذا اضطرت لإلقائه في اليم فلتفعل. انظر: التحرير والتنوير (20/ 74).

([4]) انظر: التحرير والتنوير (20/ 75)

فالتعبير في القصتين عن مشاعر الوالدين متقارب جدا، وحب الولد والخوف من فقده الدائم، كان دافعا ليبرز ذلك الشعور عندهما.

ـــــ ومن جهة أخرى: بعد أن كان يعقوب لا يقدر على مفارقة يوسف، يرزقه الله الصبر الجميل، ويستعين بالله على كيد أبنائه لأخيهم، وما ذلك إلا لربط الله على قلبه، {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}، فأعطاه الله الصبر بعد أن كان لا يستطيع مفارقته.

وأم موسى كذلك، كانت لم تطق مفارقته، فأعطاها الله القدرة على الصبر على فراق ولدها، وبعد أن كاد خوفها يمنعها من إلقائه في اليم، تتحمل الألم بإيحاء الله لها، وترميه في اليم بيدها.

ـــــ ومن جهة أخرى: يشترك الوالدان في كونهما أحسَّا إحساسا لا يكذب بقدرة الله التي ترعى الولَدين، وكونهما سيكون لهما شأن في المستقبل، ومن قدرهما أن يتدبر الله رعايتهما، فكان ذلك عاملا مهما في مساعدة أبويهما على التصبر على فقدهما وعدم التضجر، فيعقوب كان لديه علم قوي بأن الله سيجتبي يوسف ويجعله مرسلا، يعرف ذلك من خلال تأويله رؤيا يوسف التي رآها[1]، وأم موسى جاءها الإيحاء بذلك، فأورثها يقينا راسخا، كما قال الله تعالى: {إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}[2].

ـــــ ومن هذا الجانب أيضا: ما يذكره القرآن في اشتداد ذروة الفقْد من حال يعقوب بعد فترة من فقد يوسف عليه السلام، عندما طلب العزيز من إخوة يوسف المجيئ ببنيامين معهم، فهنا اشتد قلق يعقوب على بنيامين وإخوته، وظهر تخوفه من

([1]) انظر: توفيق الرحمن في دروس القرآن، المؤلف: فيصل بن عبد العزيز بن فيصل ابن حمد المبارك الحريملي النجدي (المتوفى: 1376هـ)،حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل محمد، الناشر: دار العاصمة، المملكة العربية السعودية – الرياض، دار العليان للنشر والتوزيع، القصيم – بريدة، الطبعة: الأولى، 1416 هـ – 1996 م.(3/ 357)

([2]) انظر: التفسير القرآني للقرآن (6/ 1236)

خلال نصحه لأولاده بأن يدخلوا من أبواب متفرقة، وما ذلك إلا لحاجة كان يجدها في نفسه، وهي موجب الشفقة والمحبة للأولاد[1].

وفي أم موسى يذكر القرآن الكريم أن، {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، ففؤادها أصبح خاويا من كل شيء إلا من ذكر موسى والتفجع على مصيره، لأن عواطفها مربوطة به في ذلك الوقت، وفراغ فؤادها موجبه الشفقة والعطف الفطري الذي يوجد في كل أب وأم، ولكن الله ربط على قلبها وسلّمت لأمر الله.

ففي القصتين يظهر نموذج الأب الفاقد والأم الفاقد، وفيهما تلك العاطفة الأبوية واضحة، في السلوك والتصرفات والأقوال، وفقدان القدرة على ضبط العواطف المكبوتة أحياناً، مع تقييد ذلك بالإيمان والطاعة لله سبحانه وتعالى[2].

وتظهر عاطفة الأبوة عند الأب والأم– وإن كان فيها نوع من الاختلاف– إلا أننا نريد القول بأن تلك العاطفة ظهرت بصورة واقعية لا تقبل المواربة، فيعقوب بعد فقده ليوسف حصل عنده حزن وأسف استمر معه بطول فترة الفقد، حتى تجسد الفقد بصورة يعقوب، المفجوع بولده ثم بولديه، في حالته النفسية وما فيها من حزن وهمّ وألم وفي صورة بياض عينيه الحسية، يقول تعالى: {وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ}. والصورة توضح منتهى الحزن والألم النفسي، وقد ارتسم هذا الحزن الداخلي في صورة عينيه، ولكنه على الرغم من ظهور حزنه في عينيه، إلا أنه كان يكظم حزنه، ويخفي ألمه، ويضبطه بالصبر الجميل، المكظوم عن البث[3].

([1]) تيسير الكريم الرحمن (ص: 402)

([2]) انظر: وظيفة الصورة الفنية في القرآن، المؤلف: عبد السلام أحمد الراغب، الناشر: فصلت للدراسات والترجمة والنشر – حلب، الطبعة: الأولى، 1422 هـ – 2001 م .(ص: 318)

([3]) انظر: التفسير الوسيط – مجمع البحوث (5/ 371)

ومثل ذلك الأسف والحزن حصل لأم موسى، بعد غياب موسى عنها، وظهر ذلك في صورة قلق شديد، حتى كادت لتبديه[1]، وتصيح وا ابناه وتخرج صائحة على وجهها، كما قال تعالى:{وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ}، لولا تثبيت الله لها وربطه على قلبها[2].

2ـــــ وجود الأمل عند الأبوين، فهو الذي دفع يعقوب للصبر، ودفع أم موسى للبحث، فقد كان راسخا في نفس يعقوب أن يوسف لم يمت وسيرجع إليه، ويظهر ذلك من قوله: {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} يوسف:18، فيعقوب هنا لم يصدقهم فيما قالوه، بل كذّبهم جعل عملهم من تسويلات نفوسهم وتزيينها للسوء، حيث قاموا بأمر منكر ضد أخيهم، وفوّض أمره إلى الله، ليكشف الله ذلك الأمر الذي وصفوه له – بعونه وقدرته– فالعون منه وحده على تحمل وكشف هذا المصاب بأبعاده وملابساته، وكيف لا يكون ذلك الأمل موجودا لديه وهو الذي قد أكد ليوسف أن الله سيجتبيه ويعلي شأنه، ولا يكون مثل ذلك التأكيد والتأويل إلا عن يقين راسخ في أعماق نفسه[3]، وقد كان ذلك الأمل راسخا لديه بسبب الرؤيا التي رآها يوسف، ثم بسبب القرائن التي يعرفها عن إخوة يوسف، ثم بسبب القميص الذي جاءوا به من غير خدش، ثم لم يزل ذلك الأمل يتعاظم في نفسه حتى تكلموا عن إكرام العزيز لهم وعن سيرته الطيبة، فأظهر ما كان عليه من الأمل، ولذلك قال لهم: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} يوسف:87، فهذه كلها دوافع

([1]) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص: 150)

([2])المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – 1422 هـ.(4/ 278)

([3]) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تفسير أبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت.(4/ 260)

الأمل عند يعقوب عليه السلام، مع العلم الراسخ لديه بعدم موت يوسف، ولذلك لما لامه أبناؤه بقولهم: {تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ} يوسف:85، فوض أمره إلى الله وقال لهم: {وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، أي: وأعلم من شأن الله ورحمته ما لا تعلمون، فقد كان في وجدانه النبوي الصادق وبما قام لديه من الأمارات على أن يوسف حيٌّ لم يمت، يحس أن يوسف وصل أو سيصل إلى منزلة عظيمة بين الناس، وأن شمل الأُسرة سوف يجتمع بزعامة يوسف[1].

وأما الأمل عند أم موسى فقد كان موجودا؛ لأن الله قد وعدها برعايته والعناية به وجعْله من المرسلين، واستقر ذلك في نفسها، ولكنها ربما كانت تستعجل عودة وليدها وتتلهف لذلك، بما لدى الأم من شدة اللهفة والعاطفة. ثم إن الأمل في نجاته كان متعلقا بما أوحاه الله إليها من الوعود المتعلقة بإرادته سبحانه، مما يشعر بأن ألطاف الله سترافقه وتضمن له النجاة[2].

ومن الإشارة إلى الأمل في قصة يوسف: أن يوسف ألقاه إخوته في الجب على أمل أن تمر سيارة وتأخذه بعيدا، وفي ذلك أمل بأن لا يموت في الجب، كما قال تعالى: {قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ} يوسف:10، ففعلوا ذلك وفي أنفسهم، أو على الأقل في نفس الذي اقترح ذلك، أن يوسف مأمول له النجاة[3].

3ـــــ ظهور الصبر فيهما في أوضح وأنصع صوره، فهو عند يعقوب عنوان بارز ظهر من أول لحظة تفاجأ فيها بما وقع ليوسف ابنه، حيث قال: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}، وقد تكررت هذه العبارة منه، كما أنه تحمل كل ذلك

([1]) انظر: التفسير الوسيط – مجمع البحوث (5/ 372)

([2]) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (6/ 15)

([3]) انظر: اللباب في علوم الكتاب، المؤلف: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: 775هـ)، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، 1419 هـ -1998م.(11/ 28)

الهم وصبر عليه من غير أن تظهر منه شكوى أو توجُّع، فهو صبر على الصبر نفسه، حتى تأثر ظاهرا وباطنا، كما قال الله عنه:{وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ} يوسف: 84. أي: عَمي بصره، وامتلأ قلبه حزنا، لا يظهره ولا يبثه لأحد غير ربه[1].

وأما الصبر عند أم موسى، فقد تجلى في أنها صبرت على إلقائه في اليم والتخلي عنه، وليس ذلك من السهل على نفس الأم، ثم إنها صبرت على فقده بعد إلقائه حتى رجع إليها، وصبرها في المرحلة الثانية كان بمزيد من تثبيت الله لها، كما قال الله:{لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا} القصص: 10، فقد كان هذا مزيدا من الصبر والتثبيت، فهي وإن كانت ثابتة صابرة من قبل، إلا أن فطرة الأم وعاطفتها تطغى عليها فتحملها على بعض التشوق والضعف، فيأتيها التثبيت من الله. والربط على القلب: توثيقه عن أن يضعف كما يشد العضو الوَهِن، أي ربط الله على قلبها بأن أوجد الصبر فيه[2].

4ـــ بروز الشوق واللهفة من الأبوين، وقد تجلت تلك اللهفة والأشواق في القصتين بوضوح، فيعقوب عليه السلام كتم الشوق واللهفة على يوسف فترة طويلة، ولكنه أظهر الشوق الكبير ليوسف عندما فقد بنيامين، فأخرج ذلك ما في نفسه من الشوق ليوسف، وقال:{يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ} أي: ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم[3]. ولذلك فبعد هذه الواقعة قال يعقوب لبنيه: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ}، ولم يكن قد طلب منهم هذا قبل ذلك، فشوقه كان مستكنا في نفسه.

وأما شوق أم موسى لرضيعها فهو لا يخفى، ففي قوله تعالى: {فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ} القصص:11، قيل من معاني "عَنْ جُنُبٍ": عن شوق، وهي لغة لجذام، يقولون جنبت إلى لقائك أي اشتقت إليه[4]، ولا مانع من إدخال هذا المعنى في السياق، وهذا الشوق وإن كان من أخت موسى لأخيها – على اعتبار أن الكلام عنها – فما بالك

([1]) تفسير البغوي (2/ 509)

([2]) انظر: التحرير والتنوير (20/ 81، 82)

([3]) تيسير الكريم الرحمن (ص: 404)

([4]) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (4/ 279)

بشوق الأم لرضيعها. وفي قوله تعالى:{وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ}، تصوير بديع لما كان يعتمل في نفس أم موسى في ذلك الوضع والحال، ولما كانت تعانيه من آلام نفسية مختلطة، بين القلق واللهفة والشوق والعواطف المختلفة، بعد أن ألقت بوليدها في اليم[1].. وفي قوله تعالى: {فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ} طه:40، وقوله: {فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ} القصص:13، فيه بيان يوضح مدى التشوق الذي كان يحركها للبحث عنه ولتطلُّبه، ولما رجع إليها ولدها بردت سروراً وانقطع بكاؤها، عندما رأت ما كانت متشوقة إليه، وأقر الله عينها برؤيته[2].

5ـــــ الثقة بالله، وهي عند يعقوب تجلت من خلال تسليمه لأمر الله، وفي أنه لم يقم بالتقصي عن الحادثة ولا بتحري البحث عن يوسف، إلا بعد مرور وقت طويل، فالذي جعله يصبر ذلك الصبر العظيم، ولا يسعى في تخليص يوسف، مع قيام الأمارات على إمكان أنه حي لم يمت، ليس غير الثقة بالله وبأنه سيصون يوسف وسيمكن له بعد ذلك[3]، ويشهد لهذا قوله: {وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} يوسف:86، وقوله ليوسف من قبل: {وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ} يوسف: 6.

وتلك الثقة بالله تتجلى في تصرف أم موسى أيضا، حيث ألقت بوليدها في اليم عند تلقيها ذلك الإلهام الإيحائي، الذي قال الله عنه: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} القصص:7 .. فألقته في اليم ثم انتظرت رجوعه بحسب وعد الله لها، متحرقة متلهفة، وما ذلك إلى لتمام ثقتها بالله تعالى[4].

([1]) انظر: التفسير القرآني للقرآن (10/ 315)

([2]) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (14/ 252)

([3]) انظر: اللباب في علوم الكتاب (11/ 46)

([4]) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (4/ 277)

6ـــــ التوافق في المرحلة العمرية للمفقودَين وهي سنُّ الطفولة وتلك المرحلة أشد تعلُّقٍ للوالدين بالولد – وإن كان أحدهما مميزا والآخر ليس مميزا– ولكنهما كانا لا يزالان في مرحلة الطفولة. فقوله تعالى عن يوسف: (هذا غُلامٌ) فيه دلالة على أنه كان صغيرا[1]، وكذلك في قوله: (يلتقطه) فالالتقاط يخص الصغير من البشر، فلا يلتقَط الكبير، وكذا في قوله: (وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) فذلك أمر يختص بالصغار، حيث لا يحسنون الدفاع عن أنفسهم[2].

وأما موسى عليه السلام، فالآيات واضحة في كونه كان طفلا رضيعا، ويكفي في هذا قوله: (أَنْ أَرْضِعِيهِ) فهو يدل على أنه كان لا يزال رضيعا.

7ـــــ الأحداث والوقائع التي مرّ بها يوسف وموسى عليهما السلام في فترة فقدهما وما بعدها، فهما مرَّا بأحوال تتقارب في مضامينها، فيوسف ألقي في الجب، وموسى ألقي في اليم، وكلاهما فيه مهلكة لمن وقع فيهما، وخاصة في تلك الظروف التي كانا فيها، والعمر الذي كانا فيه.

ويوسف التُقِط غلاما ليباع، {يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ} يوسف:10، ثم اشتراه عزيز مصر، وأراده ولدا مكرما له، قال تعالى:{وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ} يوسف:21 .

وموسى التُقِط كلقيط لا أهل له، {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ} القصص:8، ثم أرادت امرأة فرعون أن تتخذه ولدا مكرما لها ولفرعون، تقر به عينها، قال تعالى: {وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً} القصص:9.

و كلا الحالين من تدبير الله تعالى وحده، ولذلك قال الله في أمر يوسف: {وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـــكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}، وقال في أمر موسى: {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}.

([1]) فالغلام يطلق على: الطار الشَّارِب وَالصَّبِيّ من حِين يُولد إِلَى أَن يشب. انظر: المعجم الوسيط (2/ 660) وغيره..

([2]) انظر: محاسن التأويل (6/ 162)

8ـــ وصول المفقودَين إلى يبت الحاكم، ونشآ في بيئة الحُكم، وفي بيت الحاكم وقصره، وفي النعمة والثراء.

9ـــ أن الفقد كان هو طريق التمكين.

10ـــ إعطاء المفقوْدَيْن الحُكْم والعلم، يقول تعالى عن يوسف: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} يوسف:22، ويقول عن موسى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} القصص: 14.

11ـــ وصف المفقودَيْن (يوسف وموسى) بالإحسان، في كل أعمالهما، ولذلك استحقا أن يكافآ بالحكم والعلم.. كما في الآيتين في النقطة السابقة.

12ـــ إلقاء الله المحبة في قلوب من يراهما ، ووضع لهما القبول عند الناس[1]. فيوسف عليه السلام أحبه أبوه حبا منقطع النظير، ثم أحبه العزيز فقال لامرأته: {أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً}، وما ذلك إلا عن إعجاب ومحبة، وقوله:{أكرمي مثواه} أي أكرمي موضع مُقامه، وهو أعظم من الأمر بإكرامه نفسه، فالمعنى: أكرميه إكراماً عظيماً بحيث يكون ممن يكرم كل ما لابسه لأجله، ليرغب في المقام عندنا. وذلك إنما هو بما مكن له في القلوب من المحبة والإجلال والتوقير[2]. ثم امرأة العزيز أحبته وافتتنت به، حتى وصف حبها له بأنه شَغَف، (قَدْ شَغَفَها حُبًّا) أي وصل حبه إلى شغاف قلبها[3]. ثم النسوة لما رأينه قلن إعجابا به: {مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ}، وكأنهن بهذه العبارة يقلن لها أنت معذورة فيما فعلت معه لروعة جماله وقوة

([1]) باستثناء إخوة يوسف من أبيه، وباستثناء فرعون بالنسبة لموسى.

([2]) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (10/ 48)

([3]) التفسير القيم، تفسير القرآن الكريم، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت، الطبعة: الأولى – 1410 هـ.(ص: 328)

تأثيره على النساء[1]، وهذا بسبب ما أعطاه الله من المحبة في القلوب، وإن كان بعض ذلك سلبيا.

وفي موسى عليه السلام يقول الله تعالى:{وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي}، أَي وأَنزلت عليك محبة مني، إذ أَحببتك وجعلت من يرونك يحبُّونك، فأَحبك فرعون وأنزلك منه منزلة الولد، وأَحبك أَهله وحاشيته، وفعلْتُ ذلك لكي تربَّى وتنشأَ لديه، وفي منزله في رعايتي وحفظي، تلحظك عين عنايتي، قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي} أَحبه الله وحببه إِلى خلقه[2].

13ـــ الاجتباء والاصطفاء للمفقودين للرسالة والنبوة، وقد كان في فقدهما نوع من إعدادهما للرسالة، يقول تعالى عن يوسف:{كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ}، يجتبيك ربك: أي يصطفيك له لتكون من عباده المخلصين. ويتم نعمته عليك: أي بأن ينبّئك ويرسلك رسولاً[3].

وفي موسى عليه السلام يقول: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} والمعنى: اخترتك لرسالتي من الاصطناع بمعنى الاستخلاص، أو خلقتك لها، من الصنعة[4].

14ـ وجود الإخوة لكلا المفقودين يوسف وموسى ، وإن كانوا مختلفين في العدد والنوع والأثر، بحسب ما ذكر القرآن.

15ـــ فقد أحد الوالدين للمفقودين وعدم ظهورهما من خلال القصتين، على الأظهر من الأقوال[1]، حيث لم يظهر لهما ذكر في أحداث القصتين.

([1]) التفسير الوسيط – مجمع البحوث (4/ 318)

([2]) التفسير الوسيط – مجمع البحوث (6/ 1022)

([3]) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، المؤلف: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، 1424هـ/2003م. (2/ 593)

([4]) التفسير الوسيط – مجمع البحوث (6/ 1020)

المطلب الثاني: الاختلافات بين القصتين

ومع وجود قواسم مشتركة كثيرة بين قصتي فقد يوسف وموسى عليهما السلام، إلا أننا نجد فيهما ملامح تتميز بها كل قصة عن الأخرى، وتختلف بها عنها، وسوف تتبين تلك الملامح المميزة لكل قصة، من خلال بيان وجوه الاختلاف بين القصتين، ومن تلك الاختلافات بين القصتين، ما يلي:

1ــ الاختلاف بين الفاقِدين من حيث النوع، ففي قصة يوسف كان الفاقِد هو "الأب"، يعقوب عليه السلام، وهو ذَكَر، وفي قصة موسى كانت الفاقد هي "الأم"، وهي أنثى.

2ــ الاختلاف في مرتبة الفاقِد الدينية، ففي قصة يوسف نرى أن يعقوب عليه السلام نبي، بينما في قصة موسى نرى أن أمه امرأة من الناس، وليس لها نُبُوة[2].

3ــ الاختلاف في سِنِّ المفقودَيْن عند فقدهما، فهما وإن كانا متفقان في مرحلة الطفولة كمرحلة عمرية– كما قلنا في القواسم المشتركة–، إلا أن يوسف عليه السلام كان في سن تؤهله للتمييز، ويظهر ذلك من خلال حكايته الرؤيا لأبيه، ومن خلال طلب إخوته أن يخرج معهم للعب والرعي[3]، ولا بد أن يكون طلبهم منطقيا، ليستجيب لهم أبوهم، فإنه إذا كان يوسف في سن صغيرة جدا عن سن إخوته، فهو لا يصلح للعب معهم، وأيضا من خلال وصف وارد القافلة له بأنه "غلام" والغُلَامُ يطلق على الولد منذ صباه إلى أن يشب، كما قد مرّ معنا، فهو غلام مميز يتكلم ويُعرِب عن نفسه.

([1]) يترجح في هذا أن أم يوسف وأبو موسى كانا متوفيين، ولذلك لم يظهرا في أي من أحداث القصتين، وأما قوله: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً} يوسف:100، فقد قال أكثر المفسرين: هو أبوه وخالته لَيا، وكانت أمه راحيل قد ماتت في نفاس بنيامين. انظر: تفسير البغوي (2/ 515). والله أعلم.

([2]) انظر: التفسير الوسيط – مجمع البحوث (7/ 1737)

([3]) انظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، المؤلف : د وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر : دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة : الثانية ، 1418 هـ.(190/12)

هذا في حين أن موسى عليه السلام كان في سن الرضاعة، كما في قوله: (أَنْ أَرْضِعِيهِ)، لا يستطيع أن يميز ولا أن يعرب عن نفسه، وقد تقرر ذلك سابقا. فهما مختلفان في السن ومتفاوتان فيه.

4ــ الاختلاف في سبب الفقد وطريقته، ففقد يوسف بسبب الحسد من إخوته، من غير رضا أبيهم ولا معرفته، وكان سبب ذلك حسدهم ليوسف[1]، وفقد موسى كان سببه الخوف من فرعون وملائه، برضا أمه وإلقائها له بيدها.

5ــ الاختلاف في طبيعة إخوة الفقيدين، فإخوة يوسف – عدا بنيامين– كانوا يحسدونه، ويكنون له العداوة مما جعلهم يتسببون في فقده، بل قد أرادوا موته، ولم يكونوا سببا في أي عون له، بينما إخوة موسى كانوا سببا في معونته في مراحل مختلفة، فأخته بحثت عنه وكانت سببا في رجوعه، وأخوه هارون أعانه فيما بعد على أعباء الدعوة والرسالة، بل كان سببا في نجاته حال البحث عن مرضع له، حيث جوّز وجودُه وجودَ اللَّبَن في ثدي أمه[2].

6ــ الاختلاف في مدة الفقد، فطالت مدة فقد يوسف حتى كبر وصار في سن كبيرة، وذكر أن المدة بين فقد يوسف ولقائه بأبيه كانت سنوات طويلة[3]، بينما كانت فترة فقد موسى وقتا يسيرا، كما يدل عليه سياق القصة.

وقد قيل إن في سرعة رد موسى لأمه وإبطاء رد يوسف لأبيه سبعة أوجه من الحكمة:

الأول: أن أم موسى كانت ضعيفة بالأنوثة، وكان يعقوب قوياً بالذكورة.

الثاني: أن رمي موسى كان من الله، وذهاب يوسف كان من الناس باستحفاظه لإخوته، فخانوا فيه، فأدب لئلا يستحفظ أحد غير الله.

الثالث: أن أم موسى وثقت بوعد الله، ورجا يعقوب شفقة الإخوة.

([1]) انظر: التفسير الوسيط – مجمع البحوث (4/ 281)

([2]) انظر: تفسير البغوي (3/ 525) وفتح القدير للشوكاني (3/ 431)

([3]) انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل (2/ 135)

الرابع: أن أم موسى وعدها الله فأنجز وعده، ويعقوب لم يكن له من الله وعد، وإنما بقي بين الأسباب متردداً حتى ساقته إليه المقادير.

الخامس: أن "موسى" رمي صغيراً فسبب الله له كفيلاً.

السادس: أن "يوسف" لو قال حين أُخرج من الجب: أنا حر وابن نبي وهؤلاء إخوتي وهذه قريتي، لما اشتروه، ولكنه استسلم، فأسلمه الله إلى الحكمة حتى يجعله سنة لمن بعده، وموسى صغير فتولى الله سلامته ورده في الحال.

السابع: أن إخوة "يوسف" قالوا اطرحوه أرضاً، والأرض أم الآدمي ومقره، فلم يلق بمضيعة، وموسى رمي في البحر فلم يكن له بد من هلكة أو نجاه، فكانت النجاة هي السابقة في علم الله[1].

الثامن: ويمكن أن نضيف هنا أيضا: أن يعقوب نبي وأم موسى ليست نبية، والأنبياء تشتد ابتلاءاتهم ومحنهم أعظم من غيرهم.

7ــ الاختلاف بين حال الأب وحال الأم في قوة التحمل والصبر، فيعقوب عليه السلام عدل إلى الصبر من أول لحظة فقد فيها يوسف، وقال(فصبر جميل)، ثم كظم حزنه في نفسه إلى مدة طويلة، بينما أم موسى تصبرت، وكانت لهفتها كبيرة، فاحتاجت أن يتزل الله الصبر والتثبيت على قلبها، كما قال تعالى: (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها)، وفي ذلك بيان أن وَجد الأم على ولدها أكبر من وَجد الأب، ولذلك قال (فارغا) عن قلبها ولم يقل ذلك عن قلب يعقوب، كما أنه قال (ربطنا على قلبها) بالصبر، ولم يقل ذلك عن يعقوب.. والأم تظهر من الحزن واللهفة على وليدها أكثر مما يظهره الأب، ثم إن في سن موسى عند فقده ما

([1]) انظر: قَانون التَّأويْل، المؤلف: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: 543هـ)، دراسة وتحقيق: محمّد السّليماني، الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلاميَّة، جَدّة، مؤسَسَة عُلوم القرآن، بيروت، الطبعة: الأولى، 1406 هـ - 1986 م.(ص:524 ــ 525)

يدعو إلى اللهفة والخوف عليه، بخلاف يوسف فقد كان في سن تعطي نوعا من الطمأنينة عليه فيها[1].

8ـــ الاختلاف في توقيت البحث عن المفقوديْن ، فالبحث عن يوسف تأخر فترة طويلة، بينما حدث البحث عن موسى في وقت أسرع، وقد يكون من الداعي لذلك ما سبق ذكره في النقطة السابقة، من الفرق بين طبيعة الأم والأب، والمفقود، وملابسات الفقد، ونتيجة لذلك فإن يعقوب لم يأمر أبناءه بالبحث عن يوسف إلا بعد فترة طويلة، عندما قال لهم {يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ} بعد ما توفرت لديه معطيات شجعته على ذلك، بينما أم موسى قالت (لأخته قصيه) بعد فترة وجيزة.

وسياقات القصتين تظهر الأبوين (يعقوب وأم موسى) في أول رد فعل لهما تجاه فقد ولديهما، فيعقوب اتهم أبناءه بأخيهم ولذلك لم يأمرهم بالبحث عنه في ذلك الوقت فهم المتهمون به عنده، وقد بَتُّوا في أمره بأنه قد مات، فلم يفكر بالبحث عنه من طريقهم أصلا؛ لأنه يراهم سببَ فقده، والإخوة لن يتحركوا في ذلك الاتجاه؛ لأنهم قد جاءوا بدليل موته، فكيف يبحثون عنه بعد أن شاهدوا الذئب قد أكله، بحسب

([1]) وقد ذكر بعض العلماء هنا تساؤلا وإجابته، وهو: إذا كان يعقوب عليه السلام يعلم أن يوسف حي، ويعلم أن إخوته قد كادوا له، فلماذا لم يقم بواجب البحث عنه وإزالة مظلمته، مع قدرته على ذلك، ولماذا تحمل كل ذلك العناء والصبر، أليس الصبر في مثل تلك الحالة مذموما ..؟ ثم قال والجواب أن نقول: إن الله سبحانه وتعالى منعه من الطَّلب تشديداً للمحنة عليه، وتغليطاً للأمر عليه، وأيضاً: لعلَّهُ عرف بقرائن الأحوال أنَّ أولاده أقوياء، وأنَّهم لا يمكنونه من الطَّلب، والفحص، وأنَّه لو بالغ في البحثِ فربما أقدموا على إيذائه، وأيضاً: لعلَّه عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام عَلم أنَّ الله تبارك وتعالى سيصون يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام عن البلاءِ والمحنةِ، وأن أمرهُ سيظهرُ بالآخرةِ ولم يرد هتْك ستر أولاده، وإلقائهم في ألسنةِ النَّاس وذلك لأنَّ أحَد الولدينِ إذا ظلم أخاه، وقع أبوه في العذابِ الشَّديدِ؛ لأنه إذا لم ينتقمْ؛ يحترق قلبه على الولد المظْلُوم، وإن انتقم، احترق قلبه على الولدِ المُنتقَم منه، فلمَّا وقع يعقوب في هذه البلية رأى أنَّ الأصوب الصَّبرُ، والسُّكونُ، وتفويضُ الأَمْرِ بالكُلِّيَّةِ إلى اللهِ تعالى. انظر: اللباب في علوم الكتاب (11/ 45ـــ 46) .. والله أعلم.

زعمهم، ولم يقم هو بالبحث عن يوسف لأسباب، منها ما ذكرناه سابقا، ومنها: لأنه لا يدري في أي طريق سلك يوسف، وربما كِبَرُ سِنِّ (يعقوب) لا يؤهله للبحث عن يوسف، وربما كان لديه يقين راسخ من الوحي في أن لله تدبيرا آخر غير ما كان قد حذر يوسف منه، أو أن علمه لم يكن عن وحي فَجَوَّز صدقهم حتى قامت لديه الدلالات الكافية على ما كان في نفسه[1]..

وأما في موسى فكان هناك أمل في إيجاده، وإيحاء من الله في أنه سيعيده، والقلق عليه والبحث السريع عنه إنما كان في الغالب من الاضطراب بين دوافع عواطف الأمومة الواهة، المنطلقة من الفطرة، وبين الإيحاء الرباني الذي لا يرقى إلى الوحي النبوي الجلي.

9ــ الاختلاف في التمكين ليوسف وموسى، فالقصر لم يكن محبا لموسى بإطلاق، بل كان فيه المتوجس منه، بينما كان القصر محبا ليوسف، في الأغلب، كما هو في سياق قصته.

10ــ الاختلاف في ملابسات الفَقْد في القصتين، فيوسف كان المتسبب في فقده إخوته من أبيه، لحسدهم له،{إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ} يوسف:8، ولطمعهم في التفرد بوُدِّ أبيهم:{اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ} يوسف:9، وموسى كانت أمه هي التي أفقدته نفسَها، وسلمته للفقد عن أمر ربها، والسبب هو تخوفها عليه من فرعون وملئه.

ومن جهة أخرى: فإن في فَقد يوسف تربية له ولأبيه، وإعدادا له، وعبرة لإخوته، وإنقاذا لمصر وأهلها، كما هو في سياق القصة[2]. وفي فقد موسى إعدادا له، وتأديبا لفرعون وملائه، وإنقاذا لقومه من الظلم والهوان، وهذا يظهر من خلال سياق القصة أيضا، كما في قوله تعالى: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً} القصص:8،

([1]) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (3/ 227) و(4/ 278)

([2]) انظر: تفسير المنار، تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا (المتوفى : 1354هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1990 م.(12/ 214)

فاللام في(لِيَكُونَ) رجّح ابن كثير أنها لام تعليل لا لام العاقبة . وقال: لا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قاله المفسرون من أنها لام العاقبة، ولكن إذا نظر إلى معنى السياق، فإنه تبقى اللام للتعليل، لأن معناه أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعله عدوا لهم وحزنا، فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه[1]. فهذا مظهر من مظاهر العناية الإلهية، حيث سخر الحق سبحانه وتعالى وهو اللطيف الخبير لإنقاذ موسى من الغرق والقتل أعدى أعاديه من آل فرعون، فالتقطوه للتربية والتبني، ولو عرفوا سوء العاقبة الذي ينتظرهم على يده لاعتبروه أخطر عدو، وقضوا عليه في المهد، ولكن الله تعالى الذي قدر الانتقام من طغيانهم وفسادهم، وكفرهم وعنادهم، على يد نبيه موسى، أعمى منهم البصائر والأبصار، لتنفذ فيهم عند حلول الأجل سهام الأقدار[2].

11ــ الاختلاف في عدم معرفة مكان الفقيدين وقت الفقد، فيعقوب لم يكن يعلم أين مكان يوسف، في حين أن أم موسى كانت تعرف مساره، وأنه سيعود، بحسب قوله تعالى: {إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى، أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} طه: 38، 39. فقوله: (أن اقذفيه.. الخ) الآية تفسير لما أَوحاه الله إلى أمِّ موسى، وفيه إشعار لها بالطمأنينة على وليدها، وأن اليمّ لن يبتلعه، فقد تلقّى هذا الأمر من صاحب الأمر فيه، وأنه سيأخذه فرعون ولن يضره، بل سيربيه في قصره..، ولا شك أن ذلك إعلام لها بما سيصير عليه حال موسى[3].

([1]) انظر: تفسير ابن كثير (6/ 200)

([2]) التيسير في أحاديث التفسير (4/ 485)

([3]) انظر: التفسير الوسيط – مجمع البحوث (6/ 1021) والتفسير القرآني للقرآن (8/ 792) وغيرها. ولكن يرد هنا إشكال وهو: لماذا كانت قلقة عليه كل ذلك القلق إذا كانت تعرف مساره ومصيره؟ والجواب أن تطمينها وأمرها بإلقائه إنما كان إلهاما رسخ في نفسها، ولم يكن وحياً ثابتا، وعاطفة الأم كانت قوية بحيث إنها أنستها ذلك الوعد أو أضعفته لديها، ثم كما قال بعض المفسرين إن الشيطان كان حاضرا في وسوسته لها، كما هي طبيعته، في تخويفها عليه وتنديمها على إلقائها له بيدها في البحر. ثم إنها كذلك كانت

12ــ من الاختلافات بين قصتي يوسف وموسى عليهما السلام: أن المرأة في قصة يوسف موقفها سلبي، فزوجة العزيز والنسوة اللاتي قطّعن أيديهن، مواقفهن كلها تمثل جانبا سلبيا، في حين أن المرأة في قصة موسى مواقفها كلها إيجابية، فأم موسى وأخته، وامرأة فرعون، وابنتا شعيب، كل المواقف الصادرة عنهن إيجابية[1].

13ــ من الاختلافات بين القصتين: الإشارة الواضحة في أن ملوك مصر كانوا مختلفين في العَصْرين، ففي قصة يوسف عليه السلام كان الحكام في مصر هم من الملوك غير الفراعنة، ولذلك لم يأتِ ذكر للفراعنة في قصته، وإنما جاء لقب (الملك) في أكثر من موقف، وفي قصة موسى عليه السلام ذكر (فرعون) في أكثر من موقف، ومع ما في ذلك من إعجاز غيبي للقرآن الكريم، إلا أنه كذلك يبين جانبا من طبيعة الحكم في العَصْرين[2].

تريد أن تعرف ما أصبح عليه حال موسى بعد أن غاب عن ناظرها، وما مصيره وأين وصل، وليس ذلك مما مُنعت منه أو نهيت عنه.. إنما نهيت عن الخوف والحزن، {وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي}. وقد جمع ابن عاشور جمعا حسنا بين أقوال المفسرين في معنى قوله تعالى: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} القصص:10، فقال: وإذْ لم يذكر أن فؤاد أم موسى لماذا أصبح فارغا؟ احتملت الآية معانٍ ترجع إلى محتملات متعلق الفراغ ما هو؟. فاختلف المفسرون في ذلك قديما، ومرجع أقوالهم إلى ناحيتين: ناحية تؤذن بثبات أم موسى ورباطة جأشها، وناحية تؤذن بتطرق الضعف والشك إلى نفسها. فالأولى: تعني أنه لم يكن في قلبها همٌّ على موسى لعلمها بمصيره، ففي ذلك ثناء عليها لثباتها. والثانية: تعني أنها لم يكن في قلبها هم غير هم موسى. قال: وهذا التفسير يقتضي الجمع بين الثناء عليها بحسن ثقتها بالله والإشارة إلى ضعف الأمومة بالتشوق إلى ولدها وإن كانت عالمة بأنه يتقلب في أحوال صالحة. وقد قال بعض المفسرين بأن قلقها إنما جاءها بعد ما علمت وصول موسى إلى يد فرعون، وهذا ينافي تصديقها بوعد الله لها بإنجائه، ولا يصح أن تثق ببعض الوعد ولا تثق ببعضه الآخر. انظر: التحرير والتنوير (20/ 80 ــ 81) باختصار وتصرف..

([1]) انظر: دعوة الرسل عليهم السلام، المؤلف: أحمد أحمد غلوش، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى 1423هـ-2002م.(ص: 379)

([2]) انظر: تفسير الشعراوي (الخواطر)،محمد متولي الشعراوي (المتوفى : 1418هـ) نشر عام 1997 م.(17/ 10873)

المبحث الثاني: المقاصد والمضامين الإيمانية والأخلاقية في القصتين

تمهيد:

وهو للتفريق بين المقاصد والمضامين التي سيأتي بيانها.

وحتى يتضح الأمر فإن المقاصد التي ذكرتها هنا تختلف عن المضامين. فالمضامين سأركز فيها على الجوانب الإيمانية التي تضمنتها القصتان، وهي عبارة عن خلاصات تستنبط من الأحداث والأقوال والأفعال التي تستعرضها القصة، وفي هذه الحالة ستكون بمثابة وسائل لتحقيق المقاصد، وربما تقاطع بعضها مع المقاصد في بعض المعاني، ولكن المقصد يبقى أوسع منها.

وأما المقاصد فإني سأتوخّى فيها ذكر مقاصد القصتين، من جهة الوقوع في زمانها، ومن جهة الورود في القرآن الكريم. وعليه فيمكن أن نستنبط المقاصد التي ترمي إليها القصتان على مستويين: مستوى التأويل، ومستوى التنزيل.

فأما مستوى التأويل، فأعني به: المقاصد التي كان القَصْد من حدوث القصتين هو التوصّل إليها عند وقوعهما، أي على مستوى أشخاص القصتين وملابساتهما.

وأما مستوى التنزيل فأعني به: المقاصد التي نستطيع أن نستنبطها وننزلها على واقع من نزل عليهم القرآن وعلى واقعنا اليوم، كمخاطبين بهذا القرآن بجميع وجوهه الخطابية.

ذلك أن إيراد القصص في القرآن – عموما– يقصد إلى الإعلام بما وقع وجرى من الأحداث، وإلى الاعتبار بما وقع وجرى كذلك[1] .

والمقاصد على كلا المستويين مستنبطة من خلال سياق القصتين، وإن كان بعضها أظهر من بعض في السياق القرآني.

([1]) انظر هذا المعنى في التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، دار إحياء الكتب العربية القاهرة، 1383 هـ.(171/1)

المطلب الأول: المقاصد الإيمانية والأخلاقية المتعلقة بالقصتين

المقاصد[1] من حيث الاصطلاح هي: مجموع الغايات والأهداف التي يتوخى تحقيقها الشارع الحكيم من خلال نصوص الوحي[2].

ولا شك أن لكل قصة قرآنية مقاصد وأهدافاً وعبرا خاصة، تعرف من سياقها وألفاظها وجُملها[3]، وسوف نعرض لمقاصد قصتي فقد يوسف وموسى عليهما السلام، من خلال سياقات القصتين، وذلك كما يلي:

أولا: مقاصد قصة فَقد يوسف عليه السلام:

ويمكن أن نستنبطها ونجملها في المقاصد التالية:

1ــ إعداد يوسف عليه السلام، ليتأهل بطريق الابتلاء والامتحان لما كان قد قدر له من العطايا من أمور الدنيا والآخرة، كما يشير إليه قوله تعالى: {وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} يوسف:100. فيوسف عليه السلام يشير بكلامه إلى رؤياه وما حصل له من الابتلاء والتمحيص، وكل ذلك أوصله إلى ما هو عليه في ذلك الوقت، من الملك والنعم الكثيرة، وكل ذلك جرى بحكمة الله وتقديره، فهو لطيف لما يشاء، أي إذا أراد أمرا قيّض له أسبابا وقدره ويسره، إنه هو العليم بمصالح عباده، الحكيم في

([1])المقاصد: جمع مَقصَد، وهو من (قَصَدَ) والقَافُ وَالصَّادُ وَالدَّالُ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ، يَدُلُّ أَحَدُهَا عَلَى إِتيَانِ شَيْءٍ وَأَمِّهِ، ومنه قَصَدْتُهُ قَصْدًا وَمَقْصَدًا المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (2/ 505)، فالمقاصد لغة إما اسم مكان مقصود، أو جهة يتجه إليها القاصد أو غاية يطلبها، وكلها تدل على الغاية.

(2) تربية ملكة الاجتهاد من خلال بداية المجتهد لابن رشد (243/3).

([3]) انظر: التفسير المنير (12/ 159)

أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره ويريده[1]. وقد قيل في قوله: (والله غالب على أمره)، معناه: إن الله مستولٍ على أمر يوسف بالتدبير والحياطة، لا يكله إلى أحد حتى يبلغه منتهى علمه فيه[2].

2ـــ إيصال يوسف عليه السلام إلى موعود الله له من التمكين بالنبوة والملك، الذي بينه له أبوه في أول القصة، كما في قوله تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً.. } إلى قوله: {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ..}، فهذه الآيات تبين مبدأ كل ما حدث ليوسف من الوقائع المحرقة، ومن العاقبة المشرقة، والرؤيا لا يظهر تأويلها إلا في آخر هذه الرواية[3]. فالآيات الأولى في السورة أوجزت الأحداث التي سارت عليها وقائع القصة فيما بعد، وهي كاشفة للغاية من القصة، وقد كانت تمهيدا مشوقا لمعرفة الطريقة التي تتحقق بها هذه الغاية المرسومة المعلومة[4].

وقد أشار يوسف عليه السلام إلى هذه الغاية فيما بعد بقوله: (إن ربي لطيف لما يشاء..)، واللطيف الذي يوصل إليك أَرَبك في لطف. قال الخطابي: اللطيف هو البر بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون، وقيل: اللطيف العالم بدقائق الأمور، ومعنى لما يشاء: لأجل ما يشاء حتى يجيء على وجه الصواب[5]. وأهل السنة يثبتون صفة اللطف لله سبحانه إثباتا يليق بجلال الله وعظمته من غير تحريف أو تشبيه أو تمثيل أو تعطيل ،فقد أثبت الله تلك الصفة لنفسه ،

([1]) تفسير ابن كثير (4/ 353)

([2]) تفسير البغوي (2/ 483) وموسوعة فقه القلوب (1/ 916)

([3]) تفسير المنار (12/ 209)

([4]) انظر: التصوير الفني في القرآن (ص: 182)

([5]) فتح القدير للشوكاني (3/ 68)

وفي قوله تعالى: «وكذلك مكنا ليوسف» دلالة على إرادة مقصد وغاية من وقائع القصة، والمعنى: ومثل ذلك الإنعام الذي أنعمنا عليه في دفع المكروه عنه، وتخليصه من السجن، وتقريبه من قلب الملك، أقدرناه على ما يريد في أرض مصر يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ[1]. كما أن جملة (وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ) اعتراضٌ جيء به ليعلم السامعُ من أول الأمر أن ما لقِيه عليه السلام من الفتن التي ستحكى بتفاصيلها له غايةٌ جميلةٌ وعاقبةٌ حميدةٌ[2]. ويؤكد هذا المعنى قوله: (ولِنُعلِّمَه) فمعناه: كان القصد في إنجائه وتمكينه إلى أن يقيم العدل ويدبر أمور الناس، ويعلم معاني كتب الله تعالى وأحكامه فينفذها، أو تعبير المنامات المنبهة على الحوادث الكائنة ليستعد لها ويشتغل بتدبيرها[3].

وتعريض يوسف عليه السلام لأنواع من الابتلاءات المختلفة في مستوياتها وأشخاصها وأهدافها، يُعد ذلك تأهيل مباشر له، لأنه سيكون له شأن مع مثل تلك الأحوال التي جرت عليه، وقد أظهرت كل تلك التجارب صدق يوسف في أخلاقه الشخصية، وقدرته على التعامل في إدارة أمور العامة والخاصة، ونجح في العيش مع الأكابر ومع الأصاغر، ومع مستويات مختلفة من الناس، ومع هموم مختلفة للبشر، فأحسن التعامل مع جميع المستويات والفئات والأحوال، وكل ذلك أهله لما يُعَد له من الريادة والقيادة[4]

ويمكن أن نجمل هذين الهدفين في حق يوسف عليه السلام، بكلمتين هما: الإعداد والإمداد.

فالإعداد كان مناسبا لما يعد له من النبوة والرياسة والملك، وقد جاء ذلك الإعداد بتلك الكيفية التي ارادها الله ليوسف، ولله حكمة فيما يريد بالطريقة التي يريد[5]. فإن

([1]) زاد المسير في علم التفسير، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي.(2/ 451)

([2]) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (4/ 264)

([3]) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (3/ 159)

([4]) انظر: محاسن التأويل (6/ 242)

([5]) محاسن التأويل (6/ 241)

للظواهر غايات لا تعلم حقائقها إلا منها، فإخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه في غيابة الجب، ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته وأمانته وصدقه لما أمنه على بيته ورزقه وأهله، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها، ولو لم تخب في كيدها وكيد صواحبها من النسوة لما ألقي في السجن، ولو لم يسجن لما عرفه ساقي ملك مصر وعرف براعته وصدقه في تعبير الرؤيا، ولو لم يعلم الساقي منه هذا لما عرفه ملك مصر وآمن به وله وجعله على خزائن الأرض، ولو لم يتبوأ هذا المنصب لما أمكنه أن ينقذ أبويه وإخوته وأهلهم أجمعين من المخمصة، ويأتي بهم إلى مصر فيشاركوه في رياسته ومجده، بل لما تم قول أبيه له: (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب)، فما من حلقة من هذه السلسلة إلا وكان ظاهرها مُحرقا، وباطنها مُشرقا، وبدايتها شرا وخسرا، وعاقبتها خيرا وفوزا[1].

وأما الإمداد ليوسف عليه السلام: فهو في العطاء، الذي تمثل بالجمال والكمال، وبالعلم والحكمة، وبالملك والحُكم، وبالقبول في الأرض والقلوب، وبإتمام نعمة الله عليه، وفي كل موضع ومرحلة كان الله معه يحوطه بالعناية والرعاية، وقد عبّر يوسف عن امتنانه لربه، بعد أن تحققت له كل تلك الغايات، ووصل إلى النهاية في الدنيا، فقال: {وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ}، وقال:{رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} يوسف:101، فيوسف هنا عدد نعم الله عليه، في كل مراحله التي مر بها، وطلب من ربه أن يواصل إجراء نعمه عليه في الآخرة. وفي الآيات اعتراف عميق من يوسف عليه السلام بعناية الله به ورعايته له وإتمام نعمته عليه، وتلك هي مقتضيات الولاية من الله تعالى له، والتعبير بقوله (أحسن بي) دون: أحسن إلي، ليدل على التصاق الإحسان به وملابسته وملازمته له، وأيضا

([1]) انظر: تفسير المنار (12/ 214)

الباء يدل على تضمن الإحسان معنى اللطف[1]، فلطف الله العظيم أحاط بيوسف، في تنقله في تلك الأحوال، والشدائد والمحن، ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات[2].

3ــ وفي القصة مقصد يخص يعقوب عليه السلام، وهو: الابتلاء والامتحان لهذا النبي العظيم عليه الصلاة والسلام ، ليكمل له الأجر والثواب[3].

وقد زاد هذا الابتلاء بفقده بنيامين، وكان ذلك من تدبير يوسف. وقد تساءل علماء فقالوا: كيف استجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه؟ فأجيب عن ذلك بأنه يجوز أن يكون الله عزّ وجلّ أمره بذلك ابتلاء ليعقوب، ليعظم له الثّواب، فاتّبع أمره فيه، وهذا هو الأظهر. وربّما كان السّبب تنبيه أبيه على حاله، أو لتتضاعف المسرّة لأبيه برجوع ولديه عليه[4].

ويبين ابن القيم المصلحة التي ليعقوب في ذلك فيقول: هذا من امتحان الله تعالى له، ويوسف إنما فعل ذلك بالوحي، والله تعالى لما أراد كرامته كمّل له مرتبة المحنة والبلوى ليصبر فينال الدرجة التي لا يصل إليها إلا على حسب الابتلاء. ولو لم يكن في ذلك إلا تكميل فرحه وسروره باجتماع شمله بحبيبه بعد الفراق، وهذا من كمال إحسان الرب

([1]) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (3/ 282) والتحرير والتنوير (13/ 57)

([2]) انظر: تيسير الكريم الرحمن (ص: 412)

([3]) انظر: تفسير ابن كثير (4/ 332)

([4]) تفسير الماوردي = النكت والعيون، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ)، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان. د. ت.(3/ 55) وتفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية ، القاهرة، الطبعة الثانية ، 1384هـ – 1964 م.(9/ 222)

تعالى أن يذيق عبده مرارة الكسر قبل حلاوة الجبر، ويعرِّفه قدر نعمته عليه بأن يبتليه بضدها[1].

وإننا لندرك من خلال السياق أن يعقوب عليه السلام قد استفاد من فقد يوسف في حياته قبل آخرته، حيث قال لأبنائه عندما أرسل معهم بنيامين: (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا)، فهو أبان لهم أنه لن يعتمد على وعد منهم، ولم يطلب الاحتياط له منهم، كما فعل مع يوسف، وقد كان في حديثه مع أولاده مطمئنا إلى حفظ الله ورحمته. ولكنه يشدّد عليهم أكثر مما حدَث منه عند إذنه بإرسال يوسف عليه السّلام معهم، فطلب منهم الميثاق – وهو العهد المؤكّد باليمين– على إحضاره إليه إلا في حال العذر القاهر والإحاطة بهم، وكذلك نجد أنه لم يتفجع ويحزن على فقد بنيامين كما هو على فقد يوسف، بل ظهر واثقا بربه أكثر من ذي قبل، فقال: (عسى الله أن يأتيني بهم جميعا). وقد جرت سنة الله أن الشدة إذا تناهت جعل وراءها فرجا، والمصيبة إذا عظمت جعل بعدها المخلص منها، كل ذلك يدل على أن يعقوب عليه السلام قد استفاد كثيرا من الأحداث التي حصلت من قبل، وجعلته أكثر صبرا وأعظم أملا وأدق نظرا[2].

4ـــ من مقاصد القصة إتمام النعمة على آل يعقوب، بطريق غير متوقعة، فقد أبانت القصة أن إخوة يوسف أيضا كانوا مستهدفين بأحداثها، تربية وتنقية، وذلك لإتمام النعمة عليهم كما كان يعقوب قد قال: (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب..)[3]، ولا

([1]) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، مؤلف الأصل: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، اختصره: محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان البعلي شمس الدين، ابن الموصلي (المتوفى: 774هـ)، المحقق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث، القاهرة – مصر، الطبعة: الأولى، 1422هـ – 2001م.(ص: 306)

([2]) انظر: تفسير المراغي (13/ 27)

([3]) انظر: التفسير الوسيط – مجمع البحوث (4/ 282، 284)

يكون ذلك إلا بخضوعهم ليوسف، واتباعهم له، وذلك هو ما جاء في تعبير يوسف: (رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)، والسجود هنا كناية عن التبعية والخضوع لحكمه[1].

وقد اقتضت حكمة الله أن يسير الأمر على خلاف ما قدره إخوة يوسف، فأنجاه الله، وأبعده عنهم، ومكَّن له في الأرض حتى صار له شأن عظيم، فاحتاج إليه إخوته وخضعوا له ولسلطانه، فجاء الأمر على خلاف رغبتهم وهواهم، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمرا لا بد من إمضائه وإتمامه[2]. وهذا من الأهداف التي يدركها الناظر في القصة، ولا يدركها من يعيش الأحداث.

وبالنظر إلى السياق، نرى جانبا من كيدهم ليوسف ومكرهم به وحسدهم له، وذلك هو الذي كان قد أشار إليه يعقوب عليه السلام بقوله ليوسف: (فيكيدوا لك كيدا). ونرى السبب الذي دفعهم لذلك الكيد والمكر، في إطار ما يهدفون إليه من إبعاد يوسف، حيث كان هدفهم هو أن يَخْلو لهم وجه أبيهم ويتفرغ لحبهم، ولا ينازعهم أحد فيه[3]، وقد عبروا عن ذلك بقولهم: {اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ} يوسف:9، فهذا هو السبب الذي قاموا لأجله بإبعاد يوسف عن أبيه، فتآمروا عليه وألقوه في غيابة الجب. ثم نرى أنهم جُوزُوا بنقيض قصدهم من جهة، وأنْ تحقق لهم إتمام النعمة على الوجه الذي أراده الله من جهة أخرى. فهم كانوا خططوا لغاية تمنحهم السعادة والراحة، كما يفهمون، ولكن الله أراد أن يتم نعمته عليهم بما يراه مناسبا لهم، فإتمام النعمة وقع لهم بخلاف ما كانوا خططوا له، وذلك بالخضوع والتسليم – ونحن الناظرين نعرف ذلك وحدنا مما جاء في بداية القصة عندما رواها يوسف لأبيه:{إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} يوسف:4، وتحققنا من ذلك، نحن

([1]) انظر: التفسير الوسيط – مجمع البحوث (4/ 282)

([2]) انظر: تفسير ابن كثير (4/ 319) والتفسير المنير (12/ 236)

([3]) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (3/ 156)

وإخوة يوسف في آخر الأحداث، بما آلت:{وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً} يوسف:100. حيث كان سجودهم رمزا للخضوع والتبعية –. وفي تسلسل تلك الأحداث كان إتمام النعمة عليهم، كما قال تعالى: {وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ}، وإتمام النعمة بهذه الرؤيا على آل يعقوب لأنها مؤذنة بأنهم سيكونون كواكب يُهتدى بأنوارهم، حيث خرج من ذريتهم الأنبياءُ، كما أنهم سوف ينالون من عز يوسف وجاهه وماله[1].

5ـــ ومن مقاصد القصة: التوصل إلى إنقاذ مصر وما حولها، مما سيحل بها من القحط والجفاف، الذي كان في تقدير الله في ذلك الزمان، ولولا أن الله مَنّ عليهم بيوسف وعِلمه وحكمته، لأصابهم الهلاك بسبب القحط الذي أصابهم[2].

6ـــ من مقاصد القصة: إجابة السائلين الذين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم، عنها، أو إجابة الذين طلبوا الإتيان بقصص يعتبرون بها، ويستروحون بقراءتها وسماعها، فالسؤال: إما سؤال امتحان، وإما سؤال طلب[3]، وهذا جزء من معنى قوله تعالى: {لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ} يوسف:.7

7ـــ من مقاصد إيراد القرآن لقصة يوسف عليه السلام –بصورة عامة– إثباتُ نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وتصديقه، حيث أخبر بها على تلك الكيفية المفصلة والصحيحة، من غير سابق علم ولا معرفة[4]، يقول تعالى:{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} فالقرآن الكريم وحي من الله وكذلك القصص التي فيه، ومنها قصة يوسف وإخوته، فمحمد صلى الله عليه وسلم لم يكن قبل القرآن يعلم شيئا عن تلك

([1]) التفسير الوسيط – مجمع البحوث (4/ 282) وقد ذكر ابن كثير أنهم لم يكونوا أنبياء ولم يصيروا أنبياء بعد. انظر: تفسير ابن كثير (4/ 319)

([2]) انظر: الموسوعة القرآنية خصائص السور (4/ 124)

([3]) انظر: زاد المسير في علم التفسير (2/ 411) والتفسير الوسيط – مجمع البحوث (4/ 284)

([4]) انظر: زاد المسير في علم التفسير (2/ 475) والتفسير الوسيط – مجمع البحوث (4/ 284)

القصة، ولا عن أخبار الماضين، فدل ذلك على أن الله نبأه وأوحى إليه، ليبين بذلك صدق نبوته[1]. وفي قوله تعالى: {ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ} الآية، ذلِكَ إشارة إلى ما تقدم من قصة يوسف، وهذه الآية تعريض لقريش وتنبيه على آية صدق محمد صلى الله عليه وسلم، وفي ضمن ذلك الطعن على مكذبيه[2]. وكذلك جاء في القصة أنها تصديق لما جاء قبل محمد صلى الله عليه وسلم، وليست مفتراة ولا مكذوبة، وأنه قد جاء مثلها في الكتب السابقة، وليس بالضرورة أن توافقها في كل التفاصيل، قال تعالى:{مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـــكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} يوسف:111، فقصص القرآن ومنه هذه القصة تشهد بصدق القرآن، مما يقتضي إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، الذي نزل هذا القرآن عليه[3].

8ـــ من مقاصد قصة يوسف وما وقع له، تسلية النبي صلى الله وعليه وسلم، وأصحابه المؤمنين، بسبب ما لقيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أذى قومهم الأقربين، فهي سورة مكية نزلت في فترة حرجة من عمر الدعوة الإسلامية، بل حرجة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم الخاصة، فالسورة نزلت في الوقت بين عام الحزن وبيعة العقبة[4]، وفيها كثير من التثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وتسلية له على ما كان يلقى من أقربائه وأنسبائه المشركين من الأذى فكأنه يقول له: اصبر على ما نالك في الله، فإني قادر على تغيير ذلك، كما قدرت على تغيير ما لقي يوسف من إخوته، وسيصير أمرك إلى العلوّ عليهم كما صار أمر يوسف مع إخوته[5].

([1]) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (المتوفى : 1393هـــ)،دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت، لبنان،1415هـــ - 1995 م.(4/ 94)

([2]) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (3/ 284)

([3]) انظر: فتح القدير للشوكاني (3/ 73) وغيره.

([4]) انظر: التحرير والتنوير (12/ 198) وفي ظلال القرآن (4/ 1949)

([5]) تفسيرا المراغي (124/12)

9ــ من مقاصد قصة فقد يوسف، أخذ العبر والعظات، وقد أشارت القصة إلى ذلك، في قوله تعالى: {لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ} يوسف:7، وكما جاء في التعقيبات على القصة، بقوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ} يوسف: 111. فالقصة فيها عبر كثيرة، في كل جوانبها التي ذُكرت[1].

10ــ من مقاصد قصة يوسف عليه السلام بيان جانب من الإعجاز في القرآن، ففي القصة تفصيل شامل، ولم تتكرر القصة في موضع آخر من القرآن، وهذا لم يقع لقصة غيرها، وقد أشار لذلك قوله تعالى: {وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} يوسف:111، وهذا يعني قصة يوسف أول ما يعني[2]. ومن أهداف جمع هذه القصة في مكان واحد وتفصيلها، من غير تكرير: بيان الإعجاز في قصص القرآن سواء تكرر أو لم يتكرر[3]، وفيها إعجاز في أسلوب القصص أيضا، وفي نزولها قبل اختلاط النبي صلى الله عليه وسلم باليهود في المدينة معجزة عظيمة من إعلام الله تعالى إياه بعلوم الأولين، وبذلك ساوى الصحابة علماء بني إسرائيل في علم تاريخ الأديان والأنبياء وذلك من أهم ما يعلمه المشرعون[4].

11ــ تعتبر قصة يوسف وتفصيلها وبيانها في القرآن الكريم أهم مورد تاريخي لمعرفة تلك الفترة، إذ كانت القصة التي تضمنتها هذه السورة مفصلة مبينة لأهم ما جرى ليوسف، ولما جرى في مدة يوسف– عليه السلام– بمصر. فقصة يوسف– عليه السلام– لم تكن معروفة للعرب قبل نزول القرآن – في الأظهر– إجمالا ولا تفصيلا، بخلاف قصص الأنبياء – عليهم السلام أجمعين–، إذ كانت معروفة لديهم إجمالا، فلذلك كان القرآن مبينا إياها ومفصلا[5].

([1]) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (3/ 221، 289) وغيره..

([2]) انظر: زاد المسير في علم التفسير (2/ 478) وغيره.

([3]) انظر: تفسير القرطبي (118/9)

([4]) انظر: التحرير والتنوير (199/12، 201)

([5]) انظر: التحرير والتنوير (12/ 200)

مقاصد قصة فقد موسى عليه السلام:

أشار القرآن الكريم إلى جانب من المقاصد التي أرادها الله مما أجراه على موسى عليه السلام في حياته من الشدائد والتغيرات، وقد جاءت بعض تلك المقاصد كبيان لموسى عليه السلام، وبعضها يستنبط من سياق ذلك البيان ومن سياق القصة عموما، ومن تلك المقاصد:

1ــ أن الله أراد لموسى عليه السلام تلك التربية الخاصة، ليعده للقيام بمهمة أناطها الله به، وهي إبلاغ الرسالة إلى فرعون وملئه، كما يتبين من قوله تعالى: {وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى، وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} طه: 40، 41، فذلك كله من الإعداد والتربية ليكون مناسبا للمهمة التي أوكلت إليه[1]، والله إنما اصطنعه لنفسه، وليس لأحد من الخلق فيه شيء[2].

2ــ أن الله أراد تثبيت موسى فيما يأتي من المواقف، معتبرا بما قد وقع له في سابق حياته، فعليه أن يركن إلى الله وقدرته، فهو الذي يستطيع أن يجمع بين الأضداد والمتناقضات، فإذا كان قد رباه على يد عدوه فرعون، فهو قادر على أن يرعاه ويوفقه في بقية حياته.

3ــ بيان الله لموسى أن له مزيد اختصاص وعناية عنده، فقد صنع الله على عينه، فقال:{وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} طه: 39، وفي هذا مزيد اختصاص بموسى عليه السلام، وإلا فكل الخلق تحت عين الله ورعايته[3]. وأيضا إنما اصطنعه الله لنفسه، وليس لأحد فيه شراكة، كما قال تعالى:{وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}.

([1]) انظر: التفسير الوسيط – مجمع البحوث (6/ 1024)

([2]) انظر: في ظلال القرآن (4/ 2335)

([3]) انظر: بدائع الفوائد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د. ت.(2/ 6) والموسوعة القرآنية خصائص السور (5/ 260) وموسوعة فقه القلوب، المؤلف: محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري، الناشر: بيت الأفكار الدولية.(1/ 84)

4ــ تعداد الله لموسى النعم التي منّ بها عليه، كما يشير له قوله تعالى: {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى} طه: 37، ثم ذكر القصة، يذكّره تعالى بنصره له منذ ولادته، حيث نجاه من القتل والغرق، ورَبّاه مكرّمًا مع أمه في بيت عدوه، وقد كان يقتل من يولد في بني إسرائيل من الذكور، وذكر له النعم الأخرى أيضا[1].

5ــ بيان أن الله عز وجل هو المتحكم في كل شيء، ومن ذلك تصرفات المجرمين والظالمين وتدبيرهم، فهو سبحانه، قد جعل فرعون وملأه هم الذين يربون من ستكون معاقبتهم وزوال ملكهم على يده، {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً} القصص:8، فاللام في قوله " لِيَكُونَ" هي لام العاقبة، ولكن بالنظر إلى معنى السياق تبقى اللام للتعليل، لأن معناه أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعله عدوا لهم وحزنا، فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه[2]. شبهت العاقبة بالعلة في كونها نتيجة للفعل كشأن العلة غالبا، وكان ذلك عقابا لهم لإجرامهم، وكأن قوله: {إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ} في موضع العِلّة لالتقاطهم لموسى[3].

6ــ إثباتٌ نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه لم يختلق القرآن من عنده، ولم يكن يعرف تلك القصص من قبل، وقد جاء بيان هذا في قوله تعالى: {ومَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ} القصص:44، وهذه بعد ما سرد قصة ولادة موسى وفقده، ثم إرساله إلى فرعون وإلى قومه، ففي القصة دلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم[4]. وقال الله تعالى أيضا معقبا على قصة موسى في سورة طه: {كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً، مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرا} طه: 99،100. وفي هذا إشارة إلى أن الحكمة

([1]) التفسير الوسيط – مجمع البحوث (6/ 1001)

([2]) انظر: تفسير ابن كثير (6/ 200)

([3]) انظر: التحرير والتنوير (20/ 76)

([4]) انظر: التفسير الوسيط – مجمع البحوث (7/ 1731)

المتوخاة من إيراد قصة موسى وغيرها من قصص الأنبياء والمرسلين هي النظر فيها للتدبر والاعتبار، وتنوير البصائر والأبصار، ولتكون آية للرسالة والنبوة[1].

7ــ تسلية النبي صلى الله عليه وسلم، حيث عرّفته بما جرى على نبي من أعظم الأنبياء قبله، وكيف أن الله رعاه وأحاطه بعنايته التامة، وهو في أضعف مراحله، كما أن في القصة بيان بأن مآل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم صائر إلى ما صارت إليه بعثة موسى عليه السلام من النصر على معانديه[2].

8ــ بيان لجانب نموذجي من الروابط والعلاقات الأسرية الحميمة، والتي ينبغي أن تحتذى.

9ــ بيان لعاطفة الأمومة، العميقة والقوية.

10ــ بيان لجانب من الذكاء الذي ينبغي أن يكون في مثل تلك المواقف.

11ــ بيان لدور المرأة المهم والفاعل والإيجابي، فأم موسى في قلقها والأمر بالبحث عنه، وأخته في تقصيها عنه، وفي مخاطرتها، ثم في ذكائها في التعامل مع الموقف، كل تلك مواقف إيجابية فاعلة تحسب للمرأة المؤمنة.

([1]) انظر: تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، المؤلف: محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: 333هـ)، المحقق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، 1426 هـ – 2005 م.(7/ 307) والتحرير والتنوير (20/ 130) والتيسير في أحاديث التفسير (4/ 63)

([2]) انظر: التحرير والتنوير (181/16، 182)

المطلب الثاني: المضامين الإيمانية والأخلاقية في القصتين

تحتوي قصة فقد يوسف وفقد موسى عليهما السلام، على كثير من المضامين الإيمانية التي يمكن أن تستخلص منهما، في جوانب إيمانية عديدة، وسوف نذكر تلك المضامين من كل قصة على حِدة، من خلال تقسيمها إلى ثلاثة أقسام: مضامين اعتقادية، ومضامين أخلاقية، ومضامين سلوكية تربوية، كما يلي:

أولاً: المضامين الإيمانية في القصتين:

المضامين الإيمانية الاعتقادية ترشد إلى حسن الاعتقاد بالله سبحانه وبأقداره، وتدعو إلى التسليم والرضا بأقدار الله وقضائه، وتسهل على المرء تقبل ما يجري في حياته، وسوف نجمل ملامح ما يخص بحثنا من تلك المضامين في القصتين، من خلال النقاط التالية:

1ــ القدرة الإلهية لا يمكن لأحد من الخلق إيقافها ولا التحقق من مساراتها، ويظهر ذلك من التدبر في تمكين يوسف عليه السلام، وفي تخليصه من كل صعوبة وقع فيها، من كيد إخوته، ومن وحشة الجب والموت المحتم فيه، ومن ظروف العبودية مع القافلة، ثم من رق العبودية في بيت العزيز، ثم من السجن، حتى مكّن الله له في ملك مصر، من خلال أسباب ذاتِ خصوصية غير واقعية بالنسبة للنظر البشري، وتلك من آيات الله[1]، قال تعالى: {لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ} يوسف:7، وقال: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} يوسف:21، وقال: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ} يوسف:56، فطريق تمكن يوسف عليه السلام لم يكن سهلا ولا متوقعا بتلك الأسباب، ولكنها قدرة الله تعالى، التي أشار إليها بقوله: {وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}، فأمر الله لا يحول أحد دون تحقيقه، فإنه إذا أراد شيئا قال له كن فيكون. والضمير في كلمة (أمره) راجع إلى الله تعالى،

([1]) انظر: تفسير المراغي (117/12، 126)

وقيل: إنه عائد إلى يوسف، أي والله غَالب على أَمر يوسف يدبره ويحوطه ولا يكله إلى غيره، حتى لا يصل إليه كيد كائد، فالأمر كله لله تعالى[1].

وحتى بالنظر في موقف يعقوب عليه السلام، وعدم قدرته على منع ما حدث ليوسف، مع أنه كان يشعر بكيد إخوته، ومع ذلك تركه يخرج معهم، وإذا حضر القدر لا ينفع الحذر.

ــ وفي قصة فقد موسى نلحظ أن أقدار الله متنزلة في لطفه بموسى الرضيع وأمُّه تلقيه في اليم وحيدا فريدا، وفي لطفه بأمه؛ حيث يربط على قلبها فتصبر وتحتسب، ثم يصل بقدرة الله إلى بيت عدوه، فيربيه وعين الله ترعاه، ثم يعيده الله إلى أمه التي كانت في لهفة إليه، تنتظر وعد الله لها بأن يعيده إليها من غير ضر ولا أذي، وفي كل ذلك بيان لقدرة الله التي لا يردها شيء، وفي ذلك دلالة على قدرة الله وأنه لا إله غيره[2]، ويتبين ذلك بالنظر كيف أن الله سخر العدو لتربية عدوه، وأن الله إذا قضى أمرا هيأ له الأسباب التي لا تخطر على بال[3].

2ــ رسوخ الإيمان بالمبدأ، وصلابة الاعتقاد سبيل لتخطي الصعاب، والترفع عن الدنايا، وذلك هو الذي جعل ليوسف نفسا كريمة، وروحا طاهرة، وعزيمة صماء لا تلين أمام الشهوات والمغريات. وظهر أيضا في تمسكه بدينه ودين آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

وهذا يظهر في قصة موسى من بيان الله له ما هي وظيفته وكيف يتمسك بدينه وتوحيده، إذا عرضت له الفتن، يقول تعالى: {وأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى، إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي، إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى، فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى} طه: 13ــ

([1]) انظر: التفسير الوسيط – مجمع البحوث (4/ 300)

([2]) تفسير المراغي (16/ 119)

([3]) انظر: تفسير الشعراوي (13/ 8007)

16. ثم ترجمه موسى في حياته العملية عندما توجه إلى مدين ووجَّه وجْهه إلى الله، ثم ظهر بتلك الصورة الطاهرة النقية التي وصفته بها ابنة الرجل الصالح...

3ــ الاعتصام بالله عند الشدة، واللجوء إليه عند الضيق، سبيل للنجاح في أمور الدنيا والآخرة، ففي قصة فَقد يوسف يظهر اعتصام يعقوب بربه، عندما قال:{والله المستعان على ما تصفون} ، وعندما قال: {إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله} ، فهو لا يلجأ إلى غير الله مطلقا، ويوسف اعتصم بالله في فتنة امرأة العزيز وفي فتنة السجن، ولا شك أنه قبل ذلك سلّم أمره إلى الله تمسكا بوعد الله له عندما قال له: {وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـــذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} يوسف:15، وقد كفاه الله كل فتنة تعرض لها.

وفي قصة فقد موسى نلمح اعتصام أم موسى بحبل الله الذي وعدها بإرجاع موسى إليها، وفي أنه سيجعله من المرسلين، وهذا كان من الدوافع الحاملة لها على إلقائه في اليم، ولم تيأس منه بل تابعت رحلته حتى رجع إليها، وقد ظهر يقينها بالله وقدرته في كل خطوة أقدمت عليها. ثم نرى موسى عليه السلام عندما خرج من المدنية خائفا يترقب، وتوجه تلقاء مدين {قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل}، ثم لم يزل ذلك ديدنه حتى جاءه الفرَج من الله عن طريق العبد الصالح الذي عمل لديه، وهكذا كان بعد ذلك.

4ــ هناك ارتباط وثيق بين الإيمان بالله والثقة والاطمئنان، فيعقوب عليه السلام، لم ييأس من لقاء يوسف ووجدانه، بل علّل نفسه بالصبر الجميل{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ}، ثم إنه لم يزل يتطلبه كلما عَنّت له الفرصة أو واتَتْهُ، حتى وجده. وهذه الأحاسيس لا تزال في النفوس المؤمنة، ولا شكَّ أنها ليست من خواصِّ الأنبياء، بل هي طبيعة في النفوس المؤمنة الطاهرة الملهمة التي تأتي في إطار الصفاء النفسي[1]. وأم موسى ربط الله على قلبها وثبتها، سواء كان ذلك التثبيت في عدم إظهار الفرح بنجاته، أو في إظهار

([1]) انظر: المعجزة الكبرى القرآن (ص: 385)

الجزع على غيابه، فقد أظهرت قدرا كبيرا من الجلَد الذي جعلهم لا يفطنون إلى كونه ولدها[1].

5ــ الهداية بيد الله تعالى وحده، فيعقوب مع أنه كان نبيا عظيما إلا أن أولاده الذين أفقدوه يوسف، كانوا بتلك الأخلاق والتعاملات القبيحة مع أبيهم وأخيهم، وقد عقب الله على قصة يوسف وإخوته بقوله: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}، فمهما كان حرص الرسول عظيما على إيمان الناس وهدايتهم بجميع الوسائل، فإنه لا سبيل إلى إلجائهم للإيمان وإكراههم عليه، وإن كانوا أقرب الناس إليه[2]. وفي قصة فقد موسى نجد أن أسرة موسى عليه السلام متماسكة في الحرص على نجاته، ونلمس الهداية والصلاح في أم موسى وابنتها، ثم في هارون، وكل ذلك من قِبَل الله وحده.

6ــ في قصة يوسف إرشاد إلى أنه لا دافع لقضاء الله تعالى، ولا مانع من قدر الله تعالى، وأنه تعالى إذا قضى للإنسان بخير ومكرمة، لم يمنعه عنه أحد ولو اجتمع العالم عليه، ومثل ذلك نلمحه جليا في قصة موسى حيث تربى على يد عدوه وفي بيته وعلى نفقته، من غير أن يقدروا على دفع ذلك مطلقا.

ثانياً: المضامين الأخلاقية في القصتين:

والمضامين الأخلاقية في القصتين ظاهرة وكثيرة، وإن كانت في قصة فقد يوسف عليه السلام بالغة الوضوح، وذلك في الجانب الإيجابي والجانب السلبي، وسوف نوجز ما يخص بحثنا منها فيما يلي:

1ــ ظهور فضيلة الصبر، وهذا ظهر من جهة يعقوب، حيث صبر على فقد يوسف تلك المدة الطويلة من غير شكوى، وصبر على جفاء أبنائه الذين سببوا له تلك الحالة، وكذلك كان يوسف متدرعا بدرع الصبر على الأذى، فاجتاز به الصعاب والمصائب التي تعرّض لها، وكذلك الصبر هو سبيل الرسل بعد الاستيئاس، كما جاء في آخر

([1]) انظر: تفسير الشعراوي (17/ 10892)

([2]) انظر: التيسير في أحاديث التفسير (3/ 211)

سورة يوسف،{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} يوسف:110، وقد توّج يوسف صبره ونصره بالعفو عن إخوته، وكرمه في العفو الذي أصبح مضرب الأمثال[1]. وفي قصة فقد موسى نرى الصبر يتجلى من جهة أمه فتلقيه في اليم ثم تنتظر الفرج من الله، وتصبر على قضاء الله.

2ــ دلت القصتان على أن العفة والأمانة والاستقامة مصدر الخير كله، للرجال والنساء، على حدّ سواء، وإن الاستمساك بالدين والفضيلة مصدر الاحترام وحسن السمعة، وأن الحق وإن استتر زمنا لا بدّ من أن يظهر ولو بعد حين[2].

قال بعضهم: إن من أمعن النظر في قصة يوسف عليه السلام، علم يقينا أن التقي الأمين لا يضيع الله سعيه، بل يحسن عاقبته، ويعلي منزلته في الدنيا والآخرة، وأن المعتصم بالصبر لا يخشى حدثان الدهر وتجاربه، ولا يخاف صروفه ونوائبه، فإن الله يعضده وينجح مسعاه ويخلد ذكره العاطر على ممر الأدهار[3]، ومثل هذا يقال أيضا في قصة موسى عليه السلام.

3ــ دلت القصتان على أنواع من تصرف الإخوة الأقربين، فإخوة يوسف عاملوه بالبغي والحسد والجفاء، وهو عاملهم بالصبر والعفو والتسامح، وهكذا يعقوب أيضا تسامح مع أبنائه وصبر عليهم وعلى تصرفاتهم الجافية معه، وحتى أنه لم يطلب منهم البحث عن يوسف إلا بعد فترة طويلة، وفي النهاية تفوق الخير على الشر، فرفع الله قدر يوسف وخذل إخوته الحاسدين الحاقدين، ويؤيد هذا أيضا ما هو في قصة موسى؛ حيث إن أخته التي تعبت في البحث عنه وخاطرت في ذلك، حبا فيه وشفقة عليه،

([1]) انظر: التفسير المنير (12/ 196)

([2]) انظر: التفسير المنير (12/196)

([3]) محاسن التأويل (6/ 191)

وطاعة لأمها، كيف ذكرها الله الذكر الحسن، فمن يطلع على عملها يثني عليها ويكرمها.

ج : المضامين الإيمانية السلوكية في القصتين تتبع الفقرات لما قبلها الأخلاقية :

هناك طيف واسع من المعاني الإيمانية السلوكية التي وردت في القصتين، وسنجمل ما يخص بحثنا منها في التالي:

1ــ التعاملات السلوكية التي ظهر بها يوسف وموسى عليهما السلام، غاية في الكمال والحُسن؛ وما ذلك إلا لأن الله رعاهما على عينه، فنشآ عفيفان طاهران يحبان العدل والخير، على الرغم من أنهما مكثا في بيئة فيها مظنة الفساد عموما، وقتا ليس باليسير، ولكن في رعاية الله لهما وعنايته بهما، وفي ذلك دلالة على أن الطفل إذا توبع في تربيته وتنشئته متابعة حسنة، فإنه في النهاية يصبغ بالصبغة السلوكية السليمة.

2ــ في قصة يوسف دلالة واضحة على تأثر الأبناء بمعاملة الآباء، ولنا أن نستنبط من ذلك: أنه تجب على الوالدين العناية بالأولاد بنفس القدْر، وتربيتهم على المحبة، واتقاء وقوع التحاسد والتباغض بينهم، واجتناب تفضيل بعضهم على بعض، وربما تكون عداوة الأقارب أحياناً أشد من العداوة بين الأباعد[1].

وقد ابتدأ اللَّه سبحانه في قصة يوسف عليه السلام بالإشارة إلى ما فيها من آيات بينات في تكوين النفوس والمجتمعات، من أول الأسرة إلى المجتمع الإنساني الأكبر الذي يجمع العناصر المكونة للمجتمع الكبير والمجتمع الصغير، وفي الأسرة والحي. وأول هذه الآيات بدءا وظهورا: " الحسد " الذي يعتري أولاد العلات أو أولاد الضرائر، والسورة الكريمة تشير إلى أنه داء، يمكن تَوَقِّيه، وإذا وقع يمكن تحسين عواقبه[2].

وهنا نسجل ملاحظة مهمة وهي: أنه لا يمكن أن نقول أن ثمت تقصير في تربية يعقوب لبنيه الذين أخطأوا، أو أن أم موسى كانت أنجح منه في تربية بنيها، ولكن يمكن

([1]) انظر: تفسير المراغي (12/ 118) وزهرة التفاسير (7/ 3798)

([2]) انظر: زهرة التفاسير (7/ 3800، 3801)

القول أن التوفيق في صلاح الأبناء هو من الله تعالى أولاً، فيعقوب كان لديه نموذج للصلاح هو يوسف وبنيامين، والأخرون مثلوا نموذجا غير صالح –في حال كيدهم–، وقد كان لنوح ولد وزوجة كذلك، ولإبراهيم أبٌ كذلك، وهكذا، فالأمر هو ابتلاء وامتحان، ويستفاد من الوقائع فيما لا يقدح في الأنبياء عليهم السلام.

3ــ الرفق والتلطف يجدان صدى نافعا عند مَنْ يُعْرضان عليه من الناس، ولو كان أشد الناس قسوة، فنحن نرى أن إخوة يوسف وهم في وسط ثورة الحسد والحقد عليه، وُجد من يدعو إلى الرفق، ويستمع إليه، فقد اتفقوا على قتله، فجاء واحد منهم، وقال: {لَا تَقْتُلُوا يوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَارَةِ.} فاستجيب له، وهذا يوحى بأن الرفق له استجابة. ثم نرى يوسف عليه السلام يعالج حسد إخوته بالتسامح والعفو والرفق، فيقول: {لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم}، فيجد ذلك لديهم تقبلا، فيردون عليه {تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ}، فيعترفون بخطئهم تائبين نادمين[1].

ــ ونرى للرفق صورة أخرى أيضا تتجلى في الوصول بصاحبه إلى المطلوب، وهو ما نلمحه في ترفق أخت موسى في التوصل إلى أخذ أخيها، وذلك بمخاطبتها لملأ فرعون بأنها تريد مصلحة الغلام، وأنها ستدلهم على من ينصح له ويرعاه رعاية حسنة، فهي صورة من صور الرفق التي تكسب بها القلوب، ويتوصل بها إلى المطلوب.

4ــ الجراحات المعنوية أشد تأثير في النفوس من الجراحات الحسية، فالمعاني أبقى من المحسوسات، وهذا ما يتجلى في حقد إخوة يوسف عليه بسبب إيثار أبيه لمحبته، وعلاج الجراح المعنوية يكون بأدوية معنوية، كما فعل يوسف ويعقوب عليهما السلام في التجاوز والصفح وإذكاء روح المحبة والأخوة[2].

([1]) انظر: زهرة التفاسير (7/ 3801)

([2]) انظر: زهرة التفاسير (7/ 3802، 3804)

5ــ في القصتين تصوير للنفس الإنسانية في أحوال مختلفة، سلبا وإيجابا، استقامة وانحرافا، سواء كان ذلك في حال يعقوب أو أم موسى، أو حتى في حال إخوة يوسف، وفي أحوال أصحاب القصور والملأ منهم. ويمكن فهم كثير من الجوانب السلوكية في تلك الحالات، من خلال دراستها دراسة شاملة موجّهة في إطار التوجيهات الربانية.

6ــ يظهر للمرأة تأثير واضح من خلال القصتين، ففي قصة يوسف يظهر لها تأثير سلبي، وفي قصة موسى يظهر لها تأثير إيجابي، وفي كلا الحالين فإن هذا البروز لدور المرأة يؤكد أنها مسؤولة ومكلّفة، وقادرة على خدمة الدعوة إلى الله تعالى، وقد يتوارى الرجل أمام جهودها وعملها، والدين يكرم المرأة كما يكرم الرجل، فبعضهم من بعض، وكلاهما له دوره ووظيفته في الحياة[1].

(1) انظر: دعوة الرسل عليهم السلام (ص: 380)

ثالخاتمة

وفيها أهم النتائج والتوصيات:

أولا : أهم النتائج:

وفي نهاية هذا البحث يمكن أن نستخرج منه نتائج عدة، في إطار الأهداف التي ذكرتها في بدايته، نبين أهمها، في النقاط التالية:

1ـــــ تجلت في قصتي فقْد يوسف وموسى عليهما السلام كثير من وجوه العناية الإلهية بأنبيائه ورسله، ففيهما أنواع من الدلائل على قدرة الله وحكمته، وأقداره ولطفه بمن اصطفى من عباده، وتربيته لهم، وحسن عنايته بهم، وقد عرفنا من خلال القصتين أن من الغايات ما لا تعلم حقائقها إلا منها.

2ـ إذا أراد الله شيئا هيأ له أسبابه التي قد لا يدرك مغزاها من يراها من البشر، فالله سبحانه اجتبى يوسف وهيأه لما اجتباه له بتلك الطريقة العجيبة بالنسبة لنا، وكذلك اصطنع موسى وهيأه للمهمة الرسالية التي اختاره لها بطريقة عجيبة بالنسبة لنا أيضا.

3ـ الابتلاءات هي مرتكز أساسي للتمكين، وهذا ما ظهر جليا في القصتين.

4ـ القصتان تؤكدان أن الأنبياء والرسل هم أشد الناس ابتلاءاً.

5ـ عقّب القرآن على القصتين بما ينبه إلى الأهداف من المجيئ بهما فيه، وأهم مقصد للقصتين هو: الاتعاظ والاعتبار، وقد يكون أخذ ذلك من الجلي، أو من الخفي الذي يحتاج إلى تأمل ونظر، وفي جوانب ومستويات متعددة.

6ـ حاصل قصة فقد يوسف عليه السلام هي الفرج بعد الشدة، والتعريف بحسن عاقبة الصبر، وجلالة اليقين في حسن تلقي الأقدار بالتفويض والتسليم على توالي الامتحان وطول المدة.

وحاصل قصة فقد موسى عليه السلام تصوير لأحوال النفوس المستضعفة، ونفوس الطغاة، ونفوس الذين استمكن فيهم الخنوع، وذلت منهم النفوس، وكيف تبنى الأمم وتربى العزائم، وكيف أن وعد الله لا يتخلف مهما كانت صورته الظاهرة ..

وفي كلا القصتين أنواع من الإعداد والإمداد، يهيئ الله بها الأحوال للتغير والتغيير.

7ــ في القصتين بيان واضح أن الجهد البشري في التغيير هو المعوَّل عليه، فالله كان قادرا على إحداث التغيير في مصر سواء في عهد يوسف أو في عهد موسى، ولكنه أراد أن يهيئ البشر للتعامل مع التغيير بجهودهم هم، والتدخل الرباني كان في حدود إعداد قيادة تقود الناس، ومن المؤكد أن العناية والتأييد الرباني يأتي بعد ذلك أيضا.

8ــ كشفت القصتان عن جوانب من العلاقات الأسرية والمجتمعية، سلبية وإيجابية، ينبغي النظر إليها في إطار التوجيه الإيجابي على كل المستويات.

9ــ جاءت قصة يوسف كاملة في موضع واحد ليعطينا بها الحق – سبحانه وتعالى – نموذجاً للقصة الكاملة المحبوكة التي تدل على قدرته تعالى على الإتيان بالقصة مرة واحدة، كما هي قدرته في الإتيان بالقصة موزعة المشاهد والأحداث، وفيها أيضا رد على السائلين الذين سألوا عن قصة يوسف أو الذين طلبوا نوعا من القصص يملأ ما لديهم من تطلع وفراغ.

10ــ اتسمت القصتان إجمالا بالتسليم المطلق لله تعالى في أعلى صور التسليم، وذلك كنموذج سامي يمكن أن يتطلع كل مؤمن إلى مثله، من خلال مجاهداته الدائمة والشاملة.

11ــ تقاطعت القصتان في كثير من القواسم، تمثلت في المنطلقات والركائز والمبادئ، وغير ذلك من المشتركات . كما أن كل قصة منهما كان لها ملامح خاصة افترقت بها عن الأخرى.

12ــ في القصتين كثير من الدلائل على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، تأسيسا وتأكيدا، كما هي في سائر قصص القرآن الكريم وفي سائر آياته.

13ــ في القصتين تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ولأتباعه، فالأحوال تتشابه والظروف تتكرر، والقواعد تعمل على طريقة واحدة.

14ــ يستطيع الناظر في القصتين أن يرى نموذج الأب ونموذج الأم الممتلئة نفوسهم بالعاطفة الأبوية الإنسانية، بغض النظر عن الفرق بين النبي وغير النبي، فمنطلق العاطفة إنساني في المقام الأول، لا يتفاوت فيه البشر.

15ــ في القصتين كثير من المضامين الإيمانية، في الاعتقاد والأخلاق والسلوك، يستطيع المؤمن استجلائها ليستفيد منها في حياته العملية، في إطار هدي القرآن وسنة خير الأنام.

ثانيا: التوصيات:

يوصي الباحث بمزيد من الدراسة والبحث في القصص القرآني، من جوانب غير التي قد درست فيها من قبل، وذلك للاستفادة منها في الاهتداء بهدي القرآن وهدي الرسل خير الأنام، الذين أمرنا الله بالاقتداء بهم، في النواحي العملية والسلوكية، والتصورية.

1–على وسائل الإعلام أن تهتم بإيصال هذه المضامين الإيمانية والتربوية حتى يستفيد منها المجتمع .

2–تعميق دراسة الهدايات القرآنية من خلال القصص القرآني للإسهام في حل مشاكل وقضايا الأسرة والمجتمع .

3–دراسة وصناعة البرامج التربوية من خلال الإفادة من هذه الدراسة .

المراجع والمصادر

– إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تفسير أبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت.

– إصلاح المنطق، المؤلف: ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (المتوفى: 244هـ)، المحقق: محمد مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى 1423 هـ ، 2002 م.

– أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (المتوفى : 1393هـ)،دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت، لبنان،1415هـ – 1995 م.

– التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور التونسي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط1، 1420هـ/2000م.

– التصوير الفني في القرآن، المؤلف: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: 1385هـ)، الناشر: دار الشروق الطبعة: الطبقة الشرعية السابعة عشرة. د. ت.

– التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، ت: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405 هـ.

– التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، دار إحياء الكتب العربية القاهرة، 1383 هـ.

– التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة، د ت.

– التفسير القيم، تفسير القرآن الكريم، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت، الطبعة: الأولى – 1410 هـ.

– التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، المؤلف : د وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر : دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة : الثانية ، 1418 هـ.

– التفسير الواضح، المؤلف: الحجازي، محمد محمود، الناشر: دار الجيل الجديد – بيروت، الطبعة: العاشرة – 1413 هـ.

– التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المؤلف: مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الناشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية.

– التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المؤلف: محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى.

– التيسير في أحاديث التفسير، المؤلف: محمد المكي الناصري (المتوفى: 1414هـ)، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1405 هـ – 1985 م.

– الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، المؤلف: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق.

– القاموس الفقهي لغة واصطلاحا، المؤلف: الدكتور سعدي أبو حبيب، الناشر: دار الفكر. دمشق – سورية، الطبعة: الثانية 1408 هـ = 1988 م.

– اللباب في علوم الكتاب، المؤلف: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: 775هـ)، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، 1419 هـ -1998م.

– المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – 1422 هـ.

– المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو 770هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت.

– المعجزة الكبرى القرآن، المؤلف: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: 1394هـ)، الناشر: دار الفكر العربي. د. ت.

– المعجم الوسيط، قام بإخراجه: إبراهيم مصطفى، وآخرون، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، استانبول، تركيا.

– المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، دار العلم والدار الشامية، دمشق ـ بيروت، 1412 هـ، ت : صفوان عدنان داودي.

– الموسوعة القرآنية، خصائص السور، المؤلف: جعفر شرف الدين، المحقق: عبد العزيز بن عثمان التويجزي، الناشر: دار التقريب بين، المذاهب الإسلامية – بيروت، الطبعة: الأولى – 1420 هـ.

– النهاية في غريب الحديث والأثر، المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: 606هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، 1399هـ – 1979م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي.

– أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: 685هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى – 1418 هـ.

– أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، المؤلف: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، 1424هـ/2003م.

ـ بدائع الفوائد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د. ت.

– تاج العروس من جواهر القاموس، للمرتضى، الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د ت.

ـــ تفسير ابن كثير ـــ تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، المحقق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى – 1419 هـ .

ـــ تفسير البغوي – ـــ معالم التنزيل في تفسير القرآن، المؤلف : محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، المحقق : عبد الرزاق المهدي، الناشر : دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة : الأولى ، 1420 هـ .

– تفسير الشعراوي (الخواطر)،محمد متولي الشعراوي (المتوفى : 1418هـ) نشر عام 1997 م.

– تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية ، القاهرة، الطبعة الثانية ، 1384هـ – 1964 م.

– تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، المؤلف: محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: 333هـ)، المحقق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، 1426 هـ – 2005 م.

ـــ تفسير الماوردي = النكت والعيون، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ)، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان. د. ت.

– تفسير المراغي، المؤلف: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: 1371هـ)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، 1365 هـ – 1946 م.

– تفسير المنار ، تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا (المتوفى : 1354هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1990 م.

ـــ تكملة المعاجم العربية، المؤلف: رينهارت بيتر آن دُوزِي (المتوفى: 1300هـ)، نقله إلى العربية وعلق عليه:، جـ 1 – 8: محمَّد سَليم النعَيمي، جـ 9، 10: جمال الخياط، الناشر: وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، الطبعة: الأولى، من 1979 – 2000 م.

ـــ تهذيب اللغة، المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: 370هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 2001م.

– توفيق الرحمن في دروس القرآن، المؤلف: فيصل بن عبد العزيز بن فيصل ابن حمد المبارك الحريملي النجدي (المتوفى: 1376هـ)،حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل محمد، الناشر: دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، الرياض، دار العليان للنشر والتوزيع، القصيم، بريدة، الطبعة: الأولى 1416 هـ / 1996 م.

– تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: 1376هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق.

– حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (المتوفى: 1069هـ)، دار النشر: دار صادر – بيروت.

ـــ دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، المؤلف: القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (المتوفى: ق 12هـ)، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، الناشر: دار الكتب العلمية – لبنان / بيروت، الطبعة: الأولى، 1421هـ – 2000م.

ـــ دعوة الرسل عليهم السلام، المؤلف: أحمد أحمد غلوش، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى 1423هـ–2002م.

ـــ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: 1270هـــ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـــ.

– زاد المسير في علم التفسير، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـــ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي.

– زهرة التفاسير، المؤلف: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: 1394هـــ)، دار النشر: دار الفكر العربي.

ـــ فتحُ البيان في مقاصد القرآن، المؤلف: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (المتوفى: 1307هـــ)، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، الناشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت، عام النشر: 1412 هـــ – 1992 م.

– فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: 1250هـــ).

– في ظلال القرآن، المؤلف: سيد قطب إبراهيم، الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة، الطبعة: السابعة عشر – 1412 هـــ .

ـــ قَانون التَّأويْل، المؤلف: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: 543هـــ)، دراسة وتحقيق: محمّد السّليماني، الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلاميَّة، جَدّة، مؤسَسَة عُلوم القرآن، بيروت، الطبعة: الأولى، 1406 هـــ – 1986 م.

– لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: 711هـــ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – 1414 هـــ.

– محاسن التأويل، المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: 1332هـــ)، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت، الطبعة: الأولى – 1418 هـــ.

ـــ مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، مؤلف الأصل: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـــ)، اختصره: محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان البعلي شمس الدين، ابن الموصلي (المتوفى: 774هـــ)، المحقق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث، القاهرة – مصر، الطبعة: الأولى، 1422هـــ - 2001م.

ـــ (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) تفسير النسفي، المؤلف: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: 710هـــ)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، 1419 هـــ - 1998 م.

– معجم اللغة العربية المعاصرة، المؤلف: د أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: 1424هـــ) بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، 1429 هـــ - 2008 م.

– معجم لغة الفقهاء، المؤلف: محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنيبي، الناشر: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع/ الطبعة: الثانية، 1408 هـــ - 1988 م.

– مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـــ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون. د. ت.

– موسوعة فقه القلوب، المؤلف: محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري، الناشر: بيت الأفكار الدولية.

– نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: 885هـــ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة. الطبعة: الأولى، (1393 هـــ = 1973 م) - (1414 هـــ = 1993 م).

– وظيفة الصورة الفنية في القرآن، المؤلف: عبد السلام أحمد الراغب، الناشر: فصلت للدراسات والترجمة والنشر – حلب، الطبعة: الأولى، 1422 هـــ - 2001 م .